الجزء العاشر
السنة الثانية

المعرفة

فبراير سنة ١٩٣٣
شوال سنة ١٣٥١

مجلة — شهرية — جامعة

لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول

عبد العزيز الإسلامبولي

المجلد — شعارها : اعرف نفسك بنفسك — الرابع

خاتمة السنة الثانية

بهذا الجزء العاشر من السنة الثانية ، أو العدد الثانى والعشرين من حياة «المعرفة» ، نختتم السنة الثانية ، مغتبطين أشد الاغتباط بما أتيح لنا أن نساهم به فى خدمة الثقافة العربية الشرقية الصحيحة ، خدمة أقل ما توصف به ، أنها كانت فى منأى عن الدجل والتهويش ، بعيدة عن كل قصد مادى ، منزهة عن كل مأرب تجارى .

وإذا كنا قد تحملنا كثيراً من الخسائر المادية ، فان هذه لم تكن لتثبط من عزائمنا يوماً ما ، علماً منا بأن ذلك نصيب كل عمل يقوم لوجه الحق ، وبأنا أنشأنا « المعرفة » لخدمة الفكرة فحسب ، فكرة الثقافة العربية ، وربط البلاد الشرقية بعضها ببعض أولا ، ومن ثم ربط الشرق بالغرب ثانياً ، وذلك بالعمل على نشر معارف الأول فى الثانى ، واستخلاص النافع لنا من علوم الغرب ، واستصفاء ما يصلح لنا من مدنيته لنقوم به بنيان مدنيتنا .

لم نكن إذن — علم الله — ننتظر ربحاً ولا مغنماً يمت إلى المادة بسبب ، ولهذا صبرنا وصابرنا وثابرنا فى سبيل نشر أفكارنا ، وبث المذاهب الفلسفية الصوفية الروحية العالية ، التى لا يدخلها الزيف أو يلابسها الزيغ ، حتى حق لنا النصر ، ورأينا « المعرفة » تنتشر فى

جميع بقاع العالم من شرقيه إلى غربيه ، بل تقتحم أرجاء الشرق السحيقة البعد ، وتحتل من النفوس مكانة سامية ، ومن بعض الجامعات العلمية منزلة رفيعة ، ومن مؤتمرات المسلمين والمستشرقين جانباً عظيماً ، عز على غيرها الوصول إليه فى عشرات السنين .

وإذا كان القراء قد تعودوا منا أن نصدر « المعرفة » اثنتى عشرة مرة فى السنة — وهو مافعلناه فى السنة الأولى — ، ولم يروا ذلك متبعاً فى هذا العام ؛ فرجع هذا إلى ما رأيناه من فرصة سانحة لخدمة قرائنا ؛ بل لخدمة الشرق والعربية ، من طريق التربية والتعليم ؛ وإيقاف أبناء الشرق عامة ، والعرب خاصة ، على ما كان لأجدادهم من فضل فى نشوء مذاهب التربية والتعليم ؛ وهما أشد ما يتصل بنهضتنا الحديثة ، التى تأثرنا فيها الغرب دون الشرق .

وهذه الفرصة التى سنحت لنا ، أتيحت على أثر ماوقفنا عليه لدى العالم الفذ وكبير المربين ، الأستاذ أحمد فهمى العمروسى بك ، من جمهرة البحوث والمحاضرات القيمة ، التى تناول فيها مذاهب عدة ، ونواحى مختلفة فى التربية والتعليم والفنون الجميلة ..... الخ ، مما تراه موضحاً فى غير هذا المكان ؛ منها ما نشر ، ومنها ما لم ينشر بعد ، فاستأذنا « العمروسى بك » فى جمعها وطبعها وتقديمها إلى قراء « المعرفة » كهدية خاصة للسنة المقبلة ، فتفضل مشكوراً ، مؤثراً « المعرفة » على غيرها بهذا الكنز الثمين ، مختصاً إياها بنشره وطبعه .

فلما أن بدأنا العمل وجدنا أن الكتاب سيقع فى ٤٠٠ أربعمائة صفحة من حجم « المعرفة » تقريباً ، فرأينا أن نفسح له من وقتنا بعض الشىء ، لإظهاره فى ثوب يسر قراء « المعرفة » ، ثم تبين لنا بعد ذلك أن هذا العمل يستغرق شهراً ونصف شهر ، فآثرنا جعله ملحقاً « للمعرفة » يعوض قراءها عن جزأى مارس وإبريل من سنة ١٩٣٣ ، وهما ختام السنة الثانية فى النظام القديم .

وإذا كنا سنضحى من وقتنا قرابة شهرين ، فضلا عما ستتكلفه من نفقات كثيرة فى سبيل طبع الكتاب وإخراجه فى صورة فنية ، وهى نفقات تكفى — على أقل تقدير — لضعف نفقات عددين من « المعرفة » ، فنحن نتقبل هذه التضحية الجديدة بصدر رحب ، مضيفيها إلى سابق ما ضحينا به فى سبيل المبدأ الذى أخذنا أنفسنا به . ولنستطيع — فى الوقت ذاته — أن نقتنص بعض الوقت للقيام بتحقيق ما اعتزمناه من تحسينات جديدة ، سندخلها على « المعرفة » فى سنتها الثالثة إن شاء الله ؛ وأهمها القيام بأبحاث مبتكرة ، ورحلات قصيرة ، واستجماع قوى مدخرة لاستحداث عناصر جديدة فى العمل ، سواء أكان منها ما يتصل بآلات الطباعة ومعدات الادارة ، أم باخراج بعض المؤلفات ، وأفانين التحرير والتجديد والتنويع والتلوين ، إن فى العلوم والآداب ، وإن فى الفلسفة والفنون من مستحدثات العصر الحديث ؛ ومما لا نشك فى أن نصيب القراء منه سيكون أكثر مما كان فى الماضى باذن الله .

ونحن ننتهز هذه الفرصة لنسجل على أنفسنا عاطر الثناء وجزيل الشكر لحضرة صاحب العزة أستاذنا الأكبر « العمروسى بك » على هذه الهدية الثمينة .

صراحة لا بد منها

ولعل من الخير أن نصارح حضرات قرائنا بشيء مما صادفنا من العقبات ، التى كادت تذهب بحياة « المعرفة » ، لولا يقين وإيمان بالله جازمان ، ووثوق وإطمئنان إلى ما ندعو إليه. نذكر شيئاً من هـذا تاركين ذكر عقبات أخرى وضعها فى طريق « المعرفة » نفر من النـاس لقتلها وهى جنين لم يولد ، وعرقلتها وهى طفلة لم تحب ، لـكن الله أبى إلا خذلانهم وإزهاق باطلهم ونصرة الحق الذى تدعو « المعرفة » إليه ، وتأخذ نفسها بسبيل الدفاع عنه .

وهذا الذى سنصارح القـراء الـكرام ببعض منــه ، قد لا يقل عما تقدمه أهميــة ، وقد لايعرفه أكثر الناس ، بينما هو يؤثر فى عمل الصحفى المصرى النزيه أشد تأثير.

وآية ذلك أن « الصحافة المصرية » تعانى أكثر مما تعانيه صحف العالم أجمع ، من أعباء جسام ، ومن أثقال وأوصاب ، ومن متاعب وآلام ، أقل ما توصف به ، أنها تقيـد « الصحفى النزيه » بقيود ثقيلة ، وتهد من عزيمته هداً ، بل فيها مايقوض صرح الآمال ، ويدعو « الصحفى المصرى العف النزيه » إلى الفرار من ميدان القلم الملوث ، ونشدان الهرب من حلبة الملق والرياء والنفاق ،التى يكون نصيبه منها دائما نصيب الجواد الخاسر ، والتى كثيراً ما خلقت له الاعسار والقلق والحيرة والضيق .

***

إن الصحفى النزيه القلم ، العف اللسان، الحى الضمير ، الطاهر اليد والذمة ، لتتحسر نفسه وتتفتت كبده، من رؤية بعض هذه الجموع المتاجرة تتراكم حوله، متألبة عليه، جاحدة ناكرة، مذبذبة منافقة متسولة مستجدية ، تغرر بالشعب، وتهزأ بعقول أبنائه، وتلعب بقلوب رجاله أجمعين.

وإذا كان هذا الذى يعانيه « الصحفى النزيه » يصور لك حقيقة مهنته تصويراً دقيقاً تعلم منه حافل الفوادح التى تجثم على كتفيه ، فلا والله إنى لا أريد من وراء هذا التصوير المؤلم أن أغضب أحداً . أو أحمل العبء كاهل إنسان، وإنما أريد أن أقص عليك أيها القارىء الـكريم فصول رواية هى المأساة العنيفة ، بل هى « الدراما» التى تجدد كل يوم على المسرح ، حتى تضع يدك على موضع النار التى تأكل طائفة من مواطنيك الذين احترفوا صناعة القلم .

فى الصحافة المصرية الشريفة النزيهة — التى لا يستجدى أصحابها الاشتراكات، ولا يتملقون أميراً ولا وزيراً، ولا يداهنون كبيراً أو صغيراً — جنوح إلى توجيه الأذهان المصرية توجيهاً علمياً

قومياً شريفاً يشغلها عن كل ختل دخيل ، أو رياء مستتر ، وفيها نزوع إلى تنوير العقول تنويراً يسمو بها على الدجل والحدس والتخمين .

والصحفى النزيه حين يتوجه إلى أبناء أمته بما تضمره نفسه من أحاسيس ، وما يحتشد فى ذهنه من خواطر ، وما يفيض به وجدانه من أسباب الاصلاح ، إنما يشعر من سويدائه أنه يخاطب جهوراً يفهمه ، وأمة تحمل من متباين الآمال والآلام مثل مايحمل ، فهو إذن يرسل صوته إلى أعماق القلوب ، لأنه صوت صادر عن قلبه ، لا تعمل ولا تكلف فيه .

والصحيفة المصرية الشريفة أيضاً ، حين تشق طريقها إلى الوجود ، إنما ترى لزاماً عليها أن تكون لساناً صادق التعبير عن خوالج الشعب ، صادق الأداء لما يريده ويدعو إليه ، ويجب أن يكون عليه ، فهى إذن لا تهتف بالربح كفاء ماتهتف بالاصلاح ، وهى إذن لا تدعو إلى خديعة ، ولا تجرى وراء مغنم ، وإنما تدعو إلى الخير والاصلاح ، فى وضح النهار ، وفى ظل ماتدأب على إذاعته من مبدأ ، غير متلبدة ، ولا متذبذبة ، ولا حائرة ، ولا متأرجحة بين كفتى الميزان .

هـذا هو الصحفى المصرى الشريف النزيه ، وتلك هى الصحيفة المصرية الشريفة النزيهة .

فهل بلغ كلاهما حياة الهدوء ، وهل أصاب من حياته مايتمنى ؟

إن الصحفى النزيه يعيش فى جو من الفاقة ، كما يعيش فى جو من الأحلام والآلام ، لأنه لا يعرف هذا القلم القذر — قلم التسول والاستجداء أو المديح والهجاء — حتى يستطيع احتماله ، وحتى يخرج به آراء تجارية لا تجدى ولا تفيد ، وإنما تهدم الأخلاق وتبيد .

وإن الصحيفة المصرية الشريفة لتعيش فى جو من الفاقة ، وفى جو آخر من الضيق ، لأنها لا تستطيع أن تكون مسرحاً يقف على خشبته كل سفاف ، ويلابس التمثيل عليه كل مهرج .

فهل خلق الصحفى المصرى النزيه ليكون تاعساً ؟ وهل خلقت الصحيفة المصرية الشريفة لتكون من سقط المتاع . . . ؟

***

الواقع أن الصحفى المصرى يملك لنفسه خصائص قلما يستطيعها صحفى فى الوجود ، فهو فى أكثر أمره ، أديب يجيد دراسة الأدب ، ويحذق صناعة الكتابة ، وهو ، إلى أدبه هذا ، ذكى يدرك همسة النسيم ، وومضة الطيف ، ويستخرج منهما — لو أراد — عاصفة قوية ، وضوءاً باهر الاشعاع ، وهو ، مع ذلك ، محدث يستطيع أن يحمل الأبكم على مزاولة الكلام ، وهو بعدئذ ، أمين على إذاعة أمته فى الوضع الذى لا يظهرها أمام الشعوب ، وكأنها جماعات من آكلى الأحذية والزجاج والثعابين . . . ! !

فما هو سر إخفاقه ؟ وما هو سر بؤسه ؟

أكبر اليقين عندى أن إخفاقه يعود إلى عقيدته النزيهة التى أوحت إليه أن يكون مصرياً صميماً

فى مصريته ، وأن يكون داعية من دعاة الاصلاح ، وأن يكون رجلا روحانياً لايعنى بمتاع الدنيا قدر مايعنى بتوفير السعادة لأمته ، وتأدية رسالته فى صدق وإخلاص .

وهذه العقيدة ، أو قل هذه العقائد المجتمعة ، قلما يعنى باعتناقها أولئك الذين اندسوا فى الصحافة — سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين — ليؤلفوا من بينهم عصبة من حملة الأقلام، توحى إلى الشعب المصرى أبشع ماتوحى به النفس الشريرة من سوآت .

وهذه العصبة المغرضة ماذا جنت منها مصر ؟ اللهم إنها لم تجن منها غير الشر والوبال ، فثمت شر هائل منيت به عقول المصريين من هذا الطعام الفاسد ، الذى يقدمه إليهم طهاة لايعنيهم أ كانت عاقبة الطعام تمزيقاً لهذه الهيا كل ، أم كانت عاقبته سحقاً لما فيها من خلجات الحياة ، وثمت وبال هائل تحقق للمصريين من أولئك الأدعياء الذين يسايرون الريح حيثما تتجه أو تسير . ولكن : هل آمن المصريون بأن هذا الشر سيقضى عليهم ، وأن هذا الوبال سيدفع بهم إلى مواطن الهلاك ؟

يبدو لى أن سواد الشعب قد آمن بهذه الحقيقة المرة ، فأعرض بعض الاعراض عن كل صحيفة من هذا النوع ، ولكن خاصة الشعب ، وإن آمنت مع السواد بهذه الحقيقة ، إلا أنها لم تعمل حتى اليوم فى ذمة تهذيبها عملا حاسما .

وآية ذلك أنك ترى صحفاً تعطل بين الحين والحين ، وهى لا تعطل بأمر تصدره الحكومة — كما كان متبعاً من قبل — فحسب ، وإنما تعطل بأيدى أشباه العظماء ، وأشباه العلماء ، وأدعياء الأدب والتعليم ، لأن الصحيفة المصرية النزيهة تربأ بنفسها عن أن تكون مسرحاً للتهريج لهؤلاء ؛ فهم لهذا يحاربونها ولا يتورعون عن اختلاسها ، وأكل حقوقها ، والاحتيال عليها بقراءتها دون ثمن ، والخلاصة أنهم يأبون إلا الحصول عليها لقمة سائغة . . . ! !

وإذا كان تعطيل الصحيفة يهيء لصاحبها ومن يعمل فيها — وهم عشرات من أصحاب الأسر الكبيرة — سبيلا إلى الفاقة والعوز والضيق ، فان هنالك صحفاً أخرى ليست معطلة ، ولكنها تعب فى خضم من الفاقة ؛ لأنها تبعث بأعدادها تباعاً إلى من اشترك فيها من أشباه العظماء ، حتى إذا ما مضى الحول ، وأرسلت وراءهم رسلها ليحملوا منهم قيمة الاشتراك ، كان من شأنهم أن يعبسوا فى وجوه الرسل ، وأن ينكروا حتى طلبات اشتراكاتهم الممضاة من حضراتهم ! بل ينكروا وصول الأعداد إليهم ، ولو شهدت دور البريد بعكس ما يقولون ، بل ينكروا إنكاراً صريحاً على هذه الصحيفة تناول حقها ، وإن يكن هذا الحق فى مجموعه لا ينهض بأتفه الكماليات التى يستطيبها أقلهم شأناً فى يوم واحد . . . ! !

أليس هذا تعطيلا آخر لرسالة الصحف المصرية النزيهة ، وعملا شنيعاً لاحياء الصحف المستهترة ... ؟

إن الصحفى المصرى النزيه لا يستطيب لنفسه أن يساير الصحف الأخرى فى عملها حيال من ينكر عليها حقها ، أو يدعو إلى ابتلاعها ، فلا يرضى أن يذيع أسماء أولئك الذين يأكلون

الحق بالباطل ، وهو لا يتعقبهم بقلمه ليهتك هـذه العثرات الدنيئة . . . ولـكنه فى ظل هذه العواطف النبيلة لا يرى إلا الاعسار .

وثمة ناحية أخرى تلقى على هذا الظلام قبساً من النار التى يحترق الصحفى النزيه بجذواتها المتقدة ، .. ذلك أن الحكومة تعضد صحفاً معينة ، منها الطيب ومنها الخبيث ، باشتراكات سخية تزجى إليها كل عام ، أو باعلانات قضائية كل دورة ؛ وهذه الاشتراكات أو هاتيك الاعلانات كفيلة وحدها بتغذية الصحيفة تغذية مادية طوال الحول كله . . .

أما الصحيفة النزيهة التى لا تتلون بأى لون حكومى ، فمن حقها أن تصيب النكوص حين تتجه إلى الحكومة ، بما لها من حق ، لتسألها أن تمدها بأشباه هـذه الاشتراكات . ولعمرى إن « الصحفى المصرى النزيه » الذى يناشد حكومته العون ، إنما يريد أن يبلغ بهذا العون شأو الكمال فى عمله ، أما الصحفى المتسول فانه حين يحتمل من حكومتنا هذا العون السخى ، إنما يدخره ليكون آخر الأمر من رجال المال ؛ أو يصبح من ذوى اليسار والمرتب الذى يكفل له العيش فى رفاهة وهناء ، ولتذهب الثقافة بألوانها مع الريح .!

والآن ، فلندع ذلك كله ، فليس من طبيعتنا ــ علم الله ــ النظر إلى مثل هاتيك التوافه ؛ وإنما ذكرنا ما ذكرنا فى هذه الكلمة المرة الثائرة ، التى أملاها على القلم تأثر للحق أن يلحقه باطل ، وحرص على كرامة العلم أن يصيبها هوان ، ليتعظ من يتعظ ، ويعتبر من يعتبر.

وبعد ، فانا نعتذر إلى حضرات القراء الكرام ، عما أشغلناهم به من شأن قد يرونه شأننا نحن ، وهو فى الحق شأننا وشأنهم ، إذ ليست « المعرفة » ملكا لشخص معين .

***

ونختتم كلمتنا هذه بتقديم شكرنا الجزيل إلى حضرات الذين أخلصوا « للمعرفة » ، ولقينا منهم كل عون ، سواء أكانوا من المشتركين الذين أدوا إليها حقوقها ؛ أم من الأساتذة : الكتاب والأدباء والشعراء وقادة الرأى والفكر ، الذين ساهموا معنا بأوفر نصيب ، وقامت « المعرفة » على بحوثهم القيمة ورسالاتهم الرائعة .

وأخيراً فانا فى سبيل الفكرة والمبدأ أنشأنا « المعرفة » ، وفى سبيل الفكرة والمبدأ ضحينا ماضحينا ، وفى سبيل الفكرة والمبدأ نضحى وسنضحى حتى آخر رمق من حياتنا ؛ مادمنا نعمل لما ندعو إليه من حق ويقين ، وسنظل فى المستقبل ، كما نحن الآن ، ندأب فى حزم وعزم ، وفى قوة وفتوة ، وفى همة وشباب ؛ لا نعرف الكلل ولا الملل ، حتى يتحقق مثلنا الأعلى ، أو نقدم آخر رمق من حياتنا وأرواحنا قربانا على مذبح الحق المقدس ، فاما إلى الصدر وإما إلى القبر.

وسيظل شعارنا دائماً : « اعرف نفسك بنفسك »

فاما حيـاة تبعث الميت فى البلى وتنبت فى تلك الرموس رفاتى
وإما ممات لا قيامة بعـده ممـات لعمرى لم يقس بممات

وإلى اللقاء القريب إن شاء الله ...

فاتحة دروس

الفلسفة الاسلامية*

بقلم الأستاذ مصطفى عبد الرازق
أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب

من المستشرقين من يريدون بالفلسفة الاسلامية النزعات اليونانية فى التفكير الاسلامى . ويعهدون لدرس هذه الفلسفة باستنباط خصائص تفصل بين المزاج العقلى السامى والمزاج العقلى الآرى …

فيقول (رينان) مثلا ، فى كتابه عن ابن رشد ومذهبه : « إن خواص النفس السامية تتجلى فى انسياق فطرتها إلى التوحيد من جهة الدين ، وإلى البساطة فى اللغة والصناعة والفن والمدنية ؛ أما النفس الآرية فيميزها ميل فطرى إلى التعدد وانسجام التأليف »

ويقول مؤلف حديث اسمه (مسيو لابى Lapie) فى كتاب له عنوانه « المدنيات التونسية » : « إن النفس السامية تختلف فى شعبيها العظيمين : اليهود والعرب . فالنفس اليهودية منساقة بفطرتها إلى المستقبل ، والنفس العربيـة منساقة بفطرتها إلى الماضى ، فهما متنافرتان ، والنفس الأوربية تختلف عنهما معاً »

ولا يرضى هـذا التميز ولا ذاك (مسيو جوتيى Gauthier) أستاذ تاريخ الفلسفة الاسلامية فى جامعة الجزائر ، فهو يريد أن يميز بين الجنس السامى والجنس الآرى بخصائص أخرى ؛ فيقول فى كتابه « المدخل إلى درس الفلسفة الاسلامية »

"Introduction à létued de la philosophie Musulmane"

« فى كل مظاهر النشاط الانسانى من أدناها كسائل الطعام واللباس ، إلى أعلاها كالنظم السياسية والاجتماعية ، تتجلى فى الجنس الآرى من ناحية والجنس السامى معتبراً فى أخلص أنواعه — أى النوع العربى — نزعات أساسية متقابلة . العقل السامى يجمع بين الأشياء متناسبة وغير متناسبة مع تركها منفصلة من غير رباط يصلها ، متنقلا بينها بوثبة مباغتة من غير تدرج . أما العقل الآرى فعلى عكس ذلك يؤلف بين الأشياء بوسائط متدرجة لايتخطى واحد إلى غيره إلا على سلم متدانى الدرج ، لايكاد يحس تنقله » .

ومتى تم لهذا الفريق من المستشرقين وضع الحدود الفاصلة فى نظرهم بين العقل السامى والعقل

* هذا البحث الجليل الشأن هو فاتحة دروس الفلسفة الاسلامية التى ألقاها الاستاذ الكبير السيد مصطفى عبد الرازق ، فى كلية الاداب بالجامعة المصرية .

الآرى حتى لاتتلاقى منازعهما ، ذهبوا يبينون أن الاسلام دين قوى فى ساميته جداً، فلا يمكن تصور نظام دينى أشد منه معارضة لفلسفة اليونان القوية فى آريتها جداً . وكان أول واجب على الفلاسفة المسلمين أن يوفقوا بين هذين التيارين المتقابلين ، بحكم أنهم مسلمون متمسكون بدينهم ، وبحكم أنهم فلاسفة همهم أن ينشروا مذاهب الفلسفة اليونانية .

ويقول مسيو جوتيى : « إن الفلاسفة الاسلاميين لم يألوا جهداً فى القيام بواجبهم من هذه الناحية ، وقد أبدوا فى ممارسته — على مافيه من دقة وعناء — خصالا منقطعة النظير من مهارة ونفاذ وبعد نظر . ورأيهم فى ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال هو السائد على أنظارهم الفلسفية ، وهو معقد الطرافة فى هذه الفلسفة اليونانية الاسلامية » .

ويبين الأستاذ بعد ذلك أن الفلسفة اليونانية هى التى ساقت فلاسفة الاسلام إلى هذا الاتجاه ، وهى كانت مستمد عناصره ، وذلك بأن فكرة التوفيق بين الفلسفة والدين هى فكرة مزج واتصال ، وليس غير التفكير الآرى لمحاولة الاتصال بوسائط متدرجة فى سلسلة متتابعة بين ضدين ، هما : الاسلام دين الفصل ، وفلسفة الوصل اليونانية .

***

ووراء هذه الطائفة من المستشرقين طائفة أخرى تقرر أن المراد بالفلسفة الاسلامية : النزعة اليونانية فى الحكمة الاسلامية ، مع اعتبار مابذله مفكرو الاسلام من جهود عقلية مبنية على ماكان معروفاً فى عصورهم من معانى البحث العلمى لتحصيل صورة علمية عامة للكون ، أو جهود بذلت على الأقل لبحث مسائل متصلة بتصور شامل للعالم . وهى بهذا الاعتبار ينبغى أن تعتبر من الفلسفة .

هذا قول الاستاذ (هرتن) محرر الفصل الخاص بكلمة « فلسفة » فى دائرة المعارف الاسلامية " Hoertn Insyclopedie De I,Islam "

وبعد أن قرر أن هذا التعريف ينطبق على علم الكلام " La Ihéologie speculative "

بين أن تقدير قيمة الفلسفة الاسلامية يتوقف على تعرف مافى منهاج فلسفة أرسطاطاليس من نقص كملته تلك الفلسفة الاسلامية . ثم بين أن من مميزات هذه الفلسفة أن رجالها مؤمنون إيماناً راسخاً بأن الاسلام هو أكمل ماتنزل به الوحى السماوى . فالنبى تنكشف له حجب الغيب عن حقائق ربانية لايصل إليها العقل ثم يبلغها للناس . أما الفيلسوف فينتهى بعقله الضعيف إلى بعض تلك الحقائق من غير حيدة عن تمام الانسجام مع ماجاء به القرآن ، ففلاسفة الاسلام كأنما هم ألسنة حجاج عن الدين .

ونأتى بعد ذلك لمذاهب مؤلفى العرب فى معنى الفلسفة الاسلامية . فنجد فيهم أمثال

« الشهرستانى » الذين يرون : أن فلاسفة الاسلام قد سلكوا كلهم طريقة أرسطاطاليس فى جميع ماذهب إليه وانفرد به ، سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأى أفلاطون والمتقدمين .

أما ابن خلدون فيقول فى المقدمة :

« اعلم أن العلوم التى يخوض فيها البشر ويتداولونها فى الأمصار تحصيلا وتعليماً ، هى على صنفين : صنف طبيعى للانسان يهتدى إليه بفكره ، وصنف نقلى يأخذه عمن وضعه . والأول هى العلوم الحكمية الفلسفية ، وهى التى يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ، ويهتدى بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر . والثانى هى العلوم النقلية الوضعية ، وهى كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعى ، ولا مجال فيها للعقل إلا فى إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول ... »

ويقول ابن خلدون أيضاً :

« وأما العلوم العقلية التى هى طبيعية للانسان من حيث إنه ذو فكر : فهى غير مختصة بملة ، بل يوجه النظر فيها إلى أهل الملل كلهم ، ويستوون فى مداركها ومباحثها ، وهى موجودة فى النوع الانسانى منذ كان عمران الخليقة ، وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة » .

وبعد أن بين العلوم التى تشتمل عليها الفلسفة ، وتصدى لتاريخ الفلسفة قبل عهد الاسلام ، جاء الى عصر المأمون فذكر العناية باستخراج علوم اليونانيين وترجمتها ثم قال :

« وعكف عليها النظار من أهل الاسلام وحذقوا فى فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها ، وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ، ودونوا فى ذلك الدواوين ، وأربوا على من تقدمهم فى هذه العلوم »

وخلاصة رأى ابن خلدون : أن الفلسفة الاسلامية تقوم على آراء فلاسفة اليونان ، خصوصاً أرسطاطاليس ، مشروحاً غامضها ، مصححاً مافيها من خطأ مكملا نقصها .

وهذا الرأى غير بعيد من رأى الاستاذ هرتن ؛ غير أن ابن خلدون يرى أن هذه الفلسفة بعيدة عن الاسلام بعد كل فلسفة عن كل دين خصوصاً فى قسم الالهيات وهو قسم عظيم من أقسام الفلسفة :

« لأن مسائل علم الكلام إنما هى عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه ، بمعنى أنها لاتثبت إلا به ، فان العقل معزول عن الشرع وأنظاره وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها ، فالتعليل بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة ، بل إنما هو التماس حجة عقلية : تعضد عقائد الايمان ومذاهب

السلف فيها ، وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية ، وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلة العقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها ،وكثير ما بين المقامين : وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية ، فهى فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية،فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها ...»

ومن أجل اعتماد الفلسفة الاسلامية — ككل فلسفة — على العقل وحده ، كانت غير شرعية ،وكانت فى نظر الشرعيين — كالغزالى — مابين أبحاث مستغنى عنها لتكفل علوم الدين بحاجاتها به،وأبحاث ضارة غير نافعة من الوجهة الدينية ،ولم يسلم من الحرج الدينى عند هؤلاء من أقسام الفلسفة إلا الرياضيات .

* * *

ولسنا ننكر فضل المستشرقين على الفلسفة الاسلامية ، فان أبحاثهم الحافلة بفنون المعارف ودقائق الأنظار،الآخذة بأسباب المناهج الحديثة فى الدرس،هى من أهم المراجع فى دراستنا الناشئة ولا غنى لنا عنها .

لكننا نلاحظ أن حكاية السامية والآرية،التى يفتن بها بعضهم،وهى شبيهة بحكاية الشعوبية وما إليها مما فتن الناس فى عهد الاسلام حينا ، لاتعتمد — برغم عرضها فى صورة البحث العلمى — على سناد علمى ، وإنما هى فروض مضطربة لاتخلو — عند التمحيص — من عصبية وهوى؛ وقد ذكر الشهرستانى فى كتاب «الملل والنحل» ما كان معروفاً فى زمنه من النظريات الخاصة بأجناس العالم فقال :

« من الناس من قسم أهل العالم بحسب الأقاليم السبعة ، وأعطى أهل كل إقليم حظه من اختلاف الطبائع والأنفس التى تدل عليها الألوان والألسن . ومنهم من قسمهم بحسب الأقطار الأربعة ، التى هى الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ووفر على كل قطر حقه من اختلاف الطبائع وتباين الشرائع . ومنهم من قسمهم بحسب الأمم فقال كبار الأمم أربعة : العرب والعجم والروم والهند ، ثم زاوج بين أمة وأمة ، فذكر أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء ، والحكم بأحكام الماهيات والحقائق واستعمال الأمور الروحانية ؛ والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير طبائع الأشياء والحكم بأحكام الكيفيات والكميات واستعمال الأمور الجسمانية »(1)

* * *

ويدل ذلك على أن هذا البحث العتيق لم ينته بالباحثين إلى اتفاق ؛ ولعله لن يزال متجدد

(١) الشهرستانى ج ١ ص ٣ ب ؛

النظريات حتى يمحو الله من نفوس البشر عصبية الأجناس والألوان.

ونلاحظ أيضاً أن وجهة المستشرقين فى درس الفلسفة الاسلامية هى وجهة ضيقة، وأنهم إنما يتعرفون نسبتها إلى الفلسفة اليونانية وأثر هذه الفلسفة فيها. وذلك يجعل البحث عن كيان الفلسفة الاسلامية والإلمام بأطرافها وتتبع نشأتها وأطوارها فى المحل الثانى من عنايتهم.

أما الباحثون فى الفلسفة الاسلامية من علماء الاسلام فهمهم أن يعرفوا نسبتها إلى العلوم الشرعية ليدلوا على موضع التعارض ويردوه؛ وليس هذا ولا ذاك مرمى بحثنا.

وجهة بحثنا فى هذه البحوث هى أن نستخرج بواكر التفكير الفلسفى الذى يعتمد على العقل وحده فى الجماعة الاسلامية منذ نشأة الاسلام، وتتبع تطوره فى عهوده المختلفة حين اتصل ببعض علوم الدين، وحين امتاز عنها، مع اعتبار العوامل التى كان لها أثر فى هذه التغيرات.

وإذا خفنا من أن تضيق عبارة الفلسفة الاسلامية بمعناها الاصطلاحى، عن أن تسع هذا البحث، فقد يكون من الأخذ بأسباب الوضوح فى البيان أن ندعو موضوع دراستنا: النظر العقلى وأطواره فى الاسلام.

مصطفى عبد الرازق

من والد حزين الى ولد دفين

للاستاذ مرسى شاكر الطنطاوى

[قالها فى رثاء ولده أحمد برهان شاكر، المتوفى فى سن العشرين]

برهان! أنهى كتاب العيد يحمله ... صمت أراه على الآلام مستندى
فقد غنيت به عن شرح واقعة ... كادت تثور على حلمى ومعتقدى
لولا يقين وإيمان يطالعنى ... يوماً ألاقيك فيـــه غير متئد
فما سئمت فراقاً أنت شارعه ... إلا لحكمة ماقررت من جلد
كم ذا أحسك طيفاً فى مشاهدتى ... ولا أمسك ضيفاً حل بين يدى
أودعت قلبى أرضاً كنت تسلكها ... وعشت فيها بلا قلب ولا كبد
وما نزعت ثياب الموت بالية ... إلا ارتديت لباس الغير من جدد
سبحان من شفع البلوى بطائفة ... من الخلود تقيم الذكر فى خلدى

٢ ـ آراء عامة

فى الشعر والشعراء

لمناسبة وفاة المرحومين: « حافظ » و « شوقى »

١ ـ هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

٢ ـ ما مدى مستقبل الشعر والشعراء ؟

فى العدد الماضى من هذه المجلة ، وضحنا هذا الاستفتاء الذى قمنا به منذ شهرين تقريباً ، والغرض منه التعرف إلى آراء كبار الكتاب والشعراء ، فى هذا الموضوع الذى كان فى الأصل يتضمن ثلاثة أسئلة ؛ فاقتصر جميع الذين حادثناهم على الجواب عن السؤالين الاولين ، أما السؤال الثالث وهو : مَن من شعرائنا الحاليين أجدر بزعامة الشعر ؟ فلم نعثر له على جواب ؛ وهذا ماتوجهنا به إلى القراء لاستفتائهم فيه (أنظر ص ١١٧٩) .ونحب أن نذكرهم بأنا نشرنا فى الجزء الماضى آراء حضرات الأساتذة: إبراهيم عبد القادر المازنى، وأنطون الجميل ، وعلى الجارم ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمد الهراوى .

وفى هذا الجزء ننشر آراء حضرات الأساتذة : طه حسين ، وخليل مطران ، وأحمد الأسكندرى .

رأى الاستاذ الاسكندرى

الأستاذ الشيخ أحمد الأسكندرى ، من دهاقين الأدب العربى ، وفى الذروة من أعلامه المعدودين ، وهو نسيج وحده ، لأن له فى دراساته أسلوباً ومنهجاً فريدان فى نوعهما ، وهو يجمع ، إلى هذا كله ، دقة البحث ، وحسن الترتيب، وعميق الاستقراء ، وسلامة الذوق، وصحة الاستنتاج . ثم هو ، بعد ذلك أيضاً ، من أئمة اللغة الذين يؤخذ برأيهم ، ويحتج بأقوالهم ، ويوثق ببحوثهم ، ويكاد يكون أكثر الأساتذة فى مصر طلاباً ؛ بل لعلك تدهش ، حين تعلم ، أن أكثر الأساتذة المدرسين — الذين يزاملونه بدار العلوم — من تلاميذه .

لهذا حرصنا على تعرف رأيه الذى نقدمه إليك ملخصاً فى ما يلى :

هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

أما أن موت الشاعرين أحدث فراغاً أو لم يحدث ، فسؤال يكاد يتفق أصحاب الرأى المنزه عن الهوى ، فى أنه أحدث فراغاً ليس بالهين ولا باليسير. وأما مدى ذلك الفراغ فقد يكون من العسير التنبؤ به الآن، وقد لا نستشعره إلا بعد عشر سنوات كاملات .

على أنه يحسن بنا لفهم ذلك أن نتساءل أولا عن مبلغ ما للشعر من منزلة فى نفوس أهل هـذا العصر ، وعما إذا كان يستطيـع أن يحتل مـكاناً بين ما يضطرم به هـذا العصر من ماديات ومعنويات لها مكانتها ومنزلتها .

أما أنا فأقول لك إن الشـعر فى ذاته فن جميل ، وكل ما هو فن ، هو فى ذاته كمالى ، وفى مقدور كل إنسان أن يدعه دون أن يحس نقصاً أو فراغاً البتة .

وليس أدل على هذا من أن مصر الحديثة لم تكن فى حاجة مطلقاً إلى الشعر ولا إلى الشعراء ، وآية ذلك أن «محمد على باشا» منشىء مصر الحديثة ، لم يكن يرى حاجة إلى الشعر ولا إلى الشعراء ، فلم يستعن بالشعر فى توطيد ملـكه ، أو يستمد من الشعراء قوة فى تدعيم حكمه ، وإنما كان كل همه موجهاً إلى خلق مصر كـدولة مستقلة ، لها سيادتها وعظمتها ، فلم يجد بداً فى القيام بنهضته القوية الوثابة من التسلح بسلاح العلم ، ومن التمسك بعروة الدين ، فأرسـل البعثات ونظم الجيوش وأقام الجسور ، وتناول كل مرافق الحياة ، واستعان بكل مستخرجات العلوم الـكيميائية والطبيعية ، ومايمت إلى الأدب بسبب قوى ، ولم نر فى تضاعيف ذلك كله أثراً للشعر ولا للشعراء ، فهل قصرت باع « محمد على » عن بلوغ ما كان يحلم به لمصر الحديثة من شأو ؟ أو هل شـعرت الأمة آنئذ بأن ثمـة ما ينقصها ؟ الحق أن شيئاً من ذلك لم يكن ، والحق أن الشعر لم يكن ذلك عصره ، وإنما كان عصره فى البداوة لا فى عصور التمدين والحضارة .

ثم إن الشعر لم يخلق للعلم مطلقاً ، وليس مما يرتجل لتحقيق القواعد وتضمين الأوضاع ؛ وهو فى نفسـه خروج على النفس ، وتمرد على العرف ، وهو لا يكون بليغاً إلا حيث يخرج عن حد المألوف ،ولذلك يقال : «أبلغ الشعر أكذبه» .

والخلاصـة أن مثل الشعر مثل الزخرفة فى البيت سواء بسواء ، فأنت تستطيع أن تأوى إلى بيتك سـواء أكان مزخرفاً أم غير مزخرف ، أو هو كالحلية تستطيع المرأة التجرد عنها ، دون أن يقلل هذا من رائع جمالها أو فتنتها عند صحيحى النظر وسليمى الذوق .

والشعر من الشعور أو قل إنه من الأحاسيس أو من العاطفة ، فلا يتقيـد بالعقل ولا يتعلق بأسباب المنطق ، ولا هو مما يقبل الحقائق .

مستقبل الشعر والشعراء

أما المستقبل فلنا أن نأمل فيه الخير كل الخير ، وأستطيع أن أصارحك القول بأن لدينا الآن بعض طلاب « دار العلوم » ممن يقولون الشعر، وممن أقرأ لبعضهم شعراً ، فأراه — بالنسبة لباكورة سنهم — مما يبشر بمستقبل حسن، بل لا أكون مبالغاً إذا قلت لك: إنى أراه أروع من شعر «شوقى» ،فى بداية عهده بالشعر ،أيام كان فى مثل تلك السن فى مدرسة الحقوق.

وقد صاحبت «شوقى» وأوفدت معه إلى بعض المؤتمرات ، كمؤتمر المستشرقين المنعقد فى أثينا عام ١٩١١ ، ثم عاصرته وقرأت له جل ما أنشأ ، وعرفت له أخطاءًا كثيرة ، وأرى أن هذه الروايات وتلك القصص التى قام بها أخيراً ليست بذات خطر ، ولا بالنوع الجديد الذى كنا ننتظره ، ثم هى لا تتمشى مع النوع القصصى ولا الأوبريت اللذين نفهمهما . وإنما كانت من نوع خليط ، فأنت ترى البيت الواحد من الشعر يقطع ثلاث مقاطع أو أربعاً فى بعض الأحيان ،فيبدأ أحد أشخاص الرواية بمقطع ، ويثنى آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم يتلوه رابع ، وهكذا حتى يتم البيت . وقد يكون صدر البيت من «الهزج» بيناعجزه من «البحر الطويل»، مما لا يتسق والموسيقى، أو يتمشى والذوق السليم ، ولهذا كانت تنفر منه الأسماع .

على أنى لا أنكر أن « شوقى » تقدم بالشعر خطوات واسعة ، فقد حاول أن يتأثر المتنبى وأبا فراس الحمدانى وأبا تمام وابن المعتز وأبا نواس وابن هانىءوغيرهم من عيون الشعراء ، فوفق إلى حد بعيد ، وأجاد إجادة تقرب من الكمال، ثم خرج على الشعراء المعاصرين له أو الذين سبقوه بقليل ، فلم يشايعهم فى النقد أو التقريظ إلا غراراً، وإلا ما كانت له ضرورة ملحة .

ومع هذا فانى أرى الظروف مواتية الآن لظهور الشعراء وبروز الشعر ، وارتفاعه إلى ما يقرب من سابق عهده فى سالف عصور الاسلام ، فقد بدأنا نرى معجبين من الأمة كثيرين يتأثرون الشعر ويتعصبون للشعراء .

بل أعتقد أن مؤهلات النبوغ الموجودة الآن ، تسمح بانبات شعراء مغاوير ، أكثر مما سمحت لشوقى وحافظ وصبرى والبارودى وأضرابهم ، فقد انتشر التعليم ــ ولانتشار التعليم دخل فى ذلك ليس بالقليل ــ ، ولدينا جرائد ومجلات مختلفة تعنى بالشعر والشعراء ، ثم هناك كتب الأدب ودواوينه القديمة التى طبعت حديثاً ، والتى لم تكن مطبوعة من قبل شوقى وحافظ ، وهذه سيكون لها أثرها فى تخريج شعراء فى المستقبل .

ولست أنكر ــ إلى هذا ــ أن روح الأمة غير مشبعة بروح الشعر العربى الفصيح رغم هذه الظاهرة : ظاهرة التشجيع التى نراها الآن ، وذلك بسبب تفشى الروح الغربى فى نفوس

أبنائها ،وتقهقر مدنيتنا الروحية. والشعر كالسائح لا يحل فى غير البلد الذى ترتضيه روحه،فليعلم طلابه ذلك،وليتذاكروا عهود العرب وأسواقهم ودواوينهم ولغتهم إن كانوا يريدون شعر العرب.

ورأيى فى النهاية هو أن هذه النهضة التى تبشرنا بمستقبل حسن، ستكون باكورة موفقة لعهد زاهر فى القريب إن شاء الله ؛ فلننتظر عشر سنوات كاملات .

رأى الدكتور طه حسين

الدكتور طه حسين زعيم المجددين دون منازع ، وحامل لواء التفكير الحر غير مدافع ، وقد يكون أكثر علمائنا إنتاجاً وأثراً فى بلاد العربية دون استثناء أو تخصيص ، بل قد يكون أبعد كتابنا وأدبائنا ذيوع صيت ونباهة ذكر فى الشرق والغرب .

أما أسلوبه ، وأما بحوثه ، وأما بيانه ، وأما مادته ، وأما جولاته ، وأما آراؤه ، وأما ما أعرف ، وما لا أعرف من سحره الحلال ، فأمور سارت بذكرها الركبان، وطارت بها الشهرة إلى أجواز الفضاء.

إزاء ذلك كله ،لم يكن من بد من التحدث إليه فى موضوع اليوم، وتعرف رأيه الذى نقدمه إليك فى شىء من الايجاز يسير ، وفى شىء آخر من البسط قليل ، بل فى شىء لست أعرف إن كان حيرة أم تردداً ،وإنما أعرف أن ما أقدمه إليك الآن ، هو خلاصة ما وعته الذاكرة الضعيفة:فلينسب إليها التقصير ، إن كان ثمة تقصير .

هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

الآن، فى حيث لا اتهام بتعصب ولا غرض ، وفى حيث لا وجود لمنافسة ولا منازعة، والآن بعد أن عرف الناس ما تسألنى عنه حق المعرفة ، وبعد أن علم القاصى والدانى، ماتريدنى على التحدث إلى قرائك عنه ، أقول إن الانصاف يقضى على أن أقرر لك ولقراء مجلتك أيضاً ، أن كلا من الشاعرين أجاد فى ناحية، وأن كلا منهما أحسن فى بعض قصائده ، وأنهما معاً، ومع من سبقهما بعهد قصير، ومع بعض الشعراء الموجودين الآن ، سواء أكانوا ممن فى مصر أم فى غير مصر من بلاد العربية عامة ، قد استطاعوا جميعاً أن يردوا إلى الشعر العربى بعض شبابه فى الدولة العباسية إلى حد محدود ، كما استطاع الفقيدان أن يحتفظا لمصر بزعامة الشعر.

أريد أن أعترف بهذا فى غير ما مواربة ولا خفاء ، وأريد أن أعترف أيضاً ، وفى غير ما موجدة ولا ضغينة أيضاً ، أنهما حاولا جهد طاقتهما أن يبتكرا ، وأن يقلدا ، وأن يجيدا فى الابتكار ، وأن يجيدا فى التقليد ، فأصابا بعض النجاح ، وأخفقا بعض الاخفاق .

حاول « شوقى » أن يبتكر فى باكورة شبابه ، أو قل حاول أن يجدد فى مستهل حياته ، فكان يوفق بعض التوفيق حين يعمد إلى الصراحة ، ويفشل كل الفشل حين يلجأ إلى التستر والمداورة .

وحاول « حافظ » أن يحاكى شعر القدماء فى بداءة عمره ، أو قل حاول التقليد فى فجر شبابه ، فكان يوفق أغلب التوفيق حين يعمد إلى أسلوب القدماء وأخيلتهم ، ويفشل الفشل كله حين يلجأ إلى نفسه يستلهمها الخيال والفكرة ، وإلى حافظته يستعيرها الألفاظ القديمة والحديثة .

حاول كل منهما أن يسلك الطريق التى رسمها لنفســه فى ضحوة العمر ، لكنهما أخفقا فى النهاية ، أو قل إنهما استحالا إلى الضد ، فسلك « شوقى » فى نهايته ، طريق « حافظ » فى بدايته، واختط « حافظ » فى آخرته ، خطة «شوقى» فى باكورته. وقد يكون إخفاق «حافظ» تجديداً أو بعض تجديد ، فيصح أن نسميه نجاحاً أو شبه نجاح . وقد يكون إخفاق «شوقى» تقليداً أو بعض تقليد ، فيجوز أن نسميه ــ بالرغم من أنه تقليد ــ نجاحاً أو شبه نجاح .

ومع هذا، هل أحدث موتهما فراغاً ؟ ما أظن ذلك إن صح مجازاً بالذى يصح فى عالم الحقائق، ولو افترضنا صحته فلن نعدم من يسده ، ما دمنا نرى الشعر فى حاله الراهنة بعيداً عن أن يمثل النفس المصرية ، أو يحقق أطماع الروح العربية ، أو يهتف بما للشرق من آمال وأحلام ، أو يتمثل للشباب المثل العليا التى يجب أن تصور لأبناء الشعب وشبابه تصويراً دقيقاً يدفعهم إلى الاحساس بها والتمثل لها.

وقد يكون من الخير، لو ننتقل إلى الجزء الثانى لتفصيل ما أجملت فى هذه النقطة .

مستقبل الشعر والشعراء

قد يكون الشعر فى حياتنا الحاضرة مما لا ضرورة له ، بل أزعم أنه لم تعد له الضرورة التى كانت له فى العصور السابقة ، ذلك أنه كان فى تلك العصور الخالية من طبيعة الحياة ، باعتباره اللسان المعبر عما فى الحياة من مختلف الألوان والمشاعر . ولهذا كان القدماء يقولون : «الشعر ديوان العرب » ، والحق أن الشعر فى ذلك العصر البائد ، كان يصلح لأن يكون ديواناً لحياتهم الساذجة إلى حد بعيد ، لأنه كان يتناول جل أنواع حياتهم وأغراضهم ، وهى حياة محدودة ، وأغراض متواضعة .

ومع هذا ، ومع ما كان للشعر العربى من منزلة ومكانة ، فانه لا يكفى وحده مطلقاً لتعرف آثار العرب ، وبعكس هذا الشعر اليونانى ، فأنت تستطيع أن تلتمس ما تبحث عنه من آثار العقل اليونانى ، والحياة اليونانية الفلسفية والروحية والفنية ، فى الشعر اليونانى نفسه ، فى « الالياذة » و « الأودسا » مثلا .

لقد كان « هوميروس » يفهم الشعر اليونانى حق الفهم ، ولذلك كان يصور المعانى البديعة فى اللفظ المختار الذى لا ينبو عنه السمع ، ومع هذا فلم يكن شعره ليخلد هذا الخلود لو لم يتناول أدق العواطف الانسانية ، ويصور دفين النزعات النفسانية أدق تصوير .

أما الآن ، وقد تغير فهمنا للحياة عن فهم العرب القدماء للحياة ، واتسعت أطماعنا ، وتعددت مطالبنا ، واختلفت أذواقنا ، وبلغت الانسانية فى حاضرها هذا الشأو ، وقطع العقل البشرى مرحلة كبيرة فى سبيل التطور والرقى ؛ فقد أصبحنا فى غنى عن الشعر ، وأصبح لا يوفينا حاجتنا ، وأصبحنا حين نود التماس هذه الحياة نفزع إلى النثر ، وإلى كتاب النثر المجيدين .

وهاهى ذى «حادثة البدارى»، هل ترانى ألتمس وصفها وتحليلها من الشاعر أم من الكاتب؟ لست أشك فى أنا معاً، أنا وأنت، نلتمسها عند كتابنا المجيدين «كهيكل» أو أضراب «هيكل» ممن ضربوا فى النثر بسهم وافر .

وهذا دليل على أن النثر أخذ يحل محل الشعر ، لأن النثر صنو للعقل ، يتقدم بتقدمه ، وينحط بانحطاطه ؛ بعكس الشعر فانه وحى العاطفة والخاطر .

وتعال معى إلى الدولة العباسية ، فهاهو ذا « الجاحظ » قد طرق كل فنون الشعر ، فتحدى المدح والهجاء والسخرية وما شابه ذلك مما اختص به الشعراء ، بل تحدى أهم مميزات الشعراء فى الغزل ؛ وهذا نفسه دليل على أن النثر الفنى يستطيع التغلب على الشعر ، لأن العقل كلما تغلب على الحياة فك من قيود الشعر .

ولقد قالوا قديماً «إن الشعر هو الكلام الموزون المقفى» ، وأنا أقول إن كل إنسان يستطيع أن يقول هذا الكلام الموزون المقفى ؛ ولكن ليس معنى هذا أنه يستطيع الآن أن يحدث فى نفسى نفس الأثر الذى يحدثه الكاتب .

ثم مسألة أخرى أحب أن أعرض لها بشىء من التفكير يسير ؛ تلك هى وظيفة الشعر ؛ فأنا أزعم لك أنها تغيرت عن ذى قبل ، فأصبح من أنواع الترف لا من أنواع الضرورات كما كان عند القدماء ، وأنا وأنت نعلم أن مثل هذا النوع من الترف يعمل فى الحياة أقل مما تعمل الضرورات .

ثم لا تنس أن للشعر صلة وثيقة بالموسيقى، وأن له ذوقاً خاصاً يجب أن يلائمها ويتطور معها، فهل ترى فى شعرنا الحالى ما يلائم ذوقنا الموسيقى ؟ أكاد أشك فى ذلك أكثر الشك ، بل أزعم أنى أشك فى ذلك كل الشك . وها هى ذى الموسيقى تطورت ، بينما ترى الشعر جامداً أشد الجمود ، اللهم إلا من بعض محاولات ضئيلة جداً ؛ والتطور ظاهرة القوة والحياة، وآية ذلك أن

الشعر الفرنسى تطور تطورات مختلفة من الناحية الموسيقية حينما أحس حاجته إلى التطور، فظل فتياً قوياً، وأصبح لدى الفرنسيين مذاهب مختلفة فى تصور ألفاظ الشعر وأصواته، تقارب تصورنا لبحور الشعر العربى وقوافيه، مما تواضع عليه العروضيون . وقد أراد « شوقى » أن يجدد فى الوزن متمشياً مع الذوق الموسيقى فقال قصيدته التى مطلعها :

مال واحتجب وادعى الغضب
ليت هاجرى يذكر السبب

وزعم أنه وزن فارسى استحدثه، ولكن علماء العروض لم يتركوا له هذه الدعوى دون أن يرجعوها إلى وزن عربى قديم .

والشعر لكى يكون صادقاً بليغاً يجب أن يتوفر فيه شرطان أو حاجتان كما يقول القدماء، وهما : المعنى واللفظ، وأنا أفهم المعنى على أنه الحال النفسية التى يجب أن يحدثها الشاعر فى نفس من يسمعه أو يقرؤه . أما اللفظ فليس هو الكلمات، وإنما المفروض فيه الصوت الذى يمس الأذن ويحدث فيها أثراً معيناً .

فمن ناحية المعنى نلتمس المثل العليا، ومن ناحية اللفظ نلتمس الموسيقى، أو ما يرضى ذوقنا الموسيقى . وليس فى شعرائنا من وفق إلى أن يحس هذه المثل أو يمثلها كما ينبغى، أو أرضى ذوقنا الموسيقى .

وفى اعتقادى أن ذلك راجع إلى أن ثقافتهم ثقافة ناقصة، فهم لم يقرأوا فى الأدب أو الشعر أو الفلسفة الحديثة كثيراً، ولم يتزودوا بالآراء العلمية المبتكرة، ولا بالمذاهب الاجتماعية المستحدثة، وإنما ثقافتهم ثقافة خاصة محدودة، لم يتعدوا نطاقها. فهم جميعاً، والمسرفون فى التجديد أيضاً، أو الذين يزعمون أنفسهم مجددين، لايزالون ينظرون إلى الشعر نظر القدماء إليه، فيعتمدون على الطبيعة ويحافظون على الوزن والقافية لايبغون عن ذلك حولا .

يقول أرسطو «الشعر محاكاة»، فيجب على من يحاكى شيئاً أن يعرفه، فهل لدينا من حاكى شعراء اليونان مثلا، وهل منهم من جاءنا بما أقرأه أنا وأنت فى «الالياذه» مثلا ؛ أو مانقرأه لراسين وكورنيل وغيرهما ؟ وهل لدينا من سبق عصره، كبودلير مثلا، أو المعرى الذى نجد فيه العزاء، وغيرهما ممن عظم حظهم من الثقافة ؟

إن الحكمة التى كانت تقال فى العصر الجاهلى فتهتز لها نفس العر . ، وتفخربها قبائل على قبائل أخرى، لم تكن كافية لإرواء ظمأ العرب بعد فتوحاتهم ؛ ولذا رأيناهم يتجهون إلى الفلسفة اليونانية يلتمسون فيها مثلهم، وفى هذا دليل على صدق ما نقول، ثم هو دليل على أن التعمق فى البحث عن الأشياء لم يكن من طبيعة العرب فى عصورهم الأولى .

والآن لكى تكون لنا حياة شعرية يجب أن تتطور الألفاظ والمعانى ؛ والتطور أظهر

مظاهر الحياة ؛ وليس لدينا — بكل أسف — من هذا التطور شىء ، بل لا نكاد نحسه ، ولا نكاد نرى ذلك الشاعر الذى يستخرج لنا عواطف قد لا نحسها نحن لبعد غورها ، والنفس الانسانية أعمق غوراً من أن يحسها أصحابها تمام الاحساس ؛ فكم يكون عجبك حين تجد شاعراً كشف لك عن عاطفة غريبة عنك ، ومعنى بعيد عليك .

لكل ما ذكرت أرى أن الحاضر والمستقبل القريب للنثر دون الشعر .

رأى الاستاذ خليل بك مطران

لعل ما سطره قلم الأديب النابغة الأستاذ أنطون بك الجميل ، خير ما يقال فى « مطران » ، فأنت تجد فيه أبرز صورة تصور لك شخصية « مطران » الفذة وشاعريته الحساسة ، أدق تصوير . وهو ما نحرص على تقديمه إليك :

« نشأ تحت سماء سوريا بين أوديتها الخضراء ، وجبالها البيضاء ، بين آثار بعلبك ذات العظمة والجلال والبهاء . وترعرع وشب فى وادى النيل ، بين آثار المدنية القديمة ، وصروحها العظيمة . عاش تارة فى القرى والجبال ، فتشرب حب الطبيعة والفضيلة فأسمعنا الشعر زاهراً طاهراً ، وعاش طوراً فى المدن فراعه ما فيها من التعس والشقاء ، فألقى إلينا إنشاده مبكياً زاجراً . شعره مجمع الصور وملعب الخيال ، ونفسه كالصحيفة الحساسة ينطبع عليها كل ما يمر بها ، فهو شاعر الشعور والخيال ، وشاعر بعلبك والأهرام . وقد عرف أن يستفيد من لغات الأجانب دون تقليد ، وينهج نهج قدماء العرب دون تقييد ، فاحتفظ بصيغة العرب فى التعبير ، وأدخل أساليب الأفرنج فى التأليف والتفكير »

هذا رأى الأستاذ الجميل فى « مطران » وهو رأى صائب ، وأما رأى « مطران » فى موضوعنا فهو ما تراه فى ما يلى :

هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

إن الفقيدين العظيمين ظلا فى كل حياتهما وفى مختلف مراحلهما ، وسيظلان حتى الأبد خالدين على مر الأيام والدهور ؛ بما أسديا إلى النهضة الفكرية الحديثة من فضل جم ويد كريمة ؛ وسيظل اسماهما يترددان فى أرجاء العالم العربى ، ما بقيت العربية وبقى الشعر ، لذلك نشعر بأن ما أحدثه موتهما فى نفوسنا من ألم وحسرة بالغ الأثر ، فقد أديا رسالتهما فى الحياة بالقدر الذى أتاحته لكل منهما ظروفه ، فى أبلغ أداء وأصدق تعبير . ومن هذه الناحية نستطيع القول بأن موتهما أحدث فى حياتنا الشعرية أثراً ليس بالهين ، وفراغاً ليس باليسير ؛ وإنا لنرجو أن نوفق إلى من يملأه فى عهد قريب .

لقد أحسن كل من الشاعرين فى أبواب خاصة ، كما أجاد كل منهما فى مناح خاصة : وما من شك فى أن لكل منهما ميزات وخصائص تختلف عن ميزات الآخر وخصائصه : وقد كانت لكل منهما ملابسات وظروف تخالف ملابسات الآخر وظروفه ، ثم كان لهذه الملابسات وتلك الظروف أثر فى شعرهما وتوجيهه وجهة نرضاها كل الرضا حيناً ، وبعض الرضا حيناً آخر.

وقد حاولا محاولات عدة لمعالجة الشعر الحديث ، وتناول أغراضه المتجددة ، وفنونه المتنوعة ، فكانت محاولاتهما جد قليلة ، لأنهما لم يكونا واثقين منها ؛ ولأن النفوس لم تكن قد تهيأت لقبول هذه الآراء التى يدفعها إلينا الغرب دفعاً .

وأنت لو حاولت تلمس القصائد الطوال فى المعنى الواحد ، والغرض الواحد فى المناسبات السياسية مثلا ، فلن تظفر من ذلك بشىء يجدى أو يفيد ؛ وليس ذلك عيبهما وحدهما ، وإنما هو عيب الشعب أيضاً ، فقد كان يرضيه فى نهضته السياسية مثلا البيت الواحد ، فيصفق له ويطرب منه ويجعله أنشودة ومثلا ، أما أغراض الشعر البعيدة المرمى ، السامية المغزى ، وأما استقراء التاريخ العام ، وتحليل الشخصيات البارزة تحليلا دقيقاً ، وتناول أروع عواطف النفس بالتصوير والوصف ، وأما تصور المثل العليا ورسم الأوضاع الشعرية السامية ، فأشياء لم نعمل منها قليلا ولا كثيراً ، وإذا كنت تظفر بشىء من هذا فإنما تظفر بالنادر الذى لا حكم له ولا يقاس عليه .

ومرد ذلك إلى أنا لم نتشبع بالروح العربى الخلاق ، ولا بالروح الغربى الحديث فى التصوير والوصف وسوق الأقاصيص ونحوها ، وينقصنا فى ذلك الروح الحربى الجرىء ، والروح القومى السليم ، والثروة الضافية من الألفاظ العربية الفصيحة .

ولذلك لا تجد فى شعرنا ما تجده بارزاً فى شعر الألمان أو الفرنسيس أو الانكليز من روح حربى أو روح قومى أو روح خلقى.

وما ذلك إلا لأننا وقفنا عند القديم فحسب ، ثم تركنا الحياة وكل ما فى الحياة من جديد ، وأخذنا نتمثل مثل القدماء من العرب ، ونتخيل أخيلتهم ، ونستعير ألفاظهم وقوافيهم وأوزانهم ، من غير ما تجديد ولا تهذيب ولا تشذيب ؛ ومن غير ما نظر إلى الأمام ، بل نرجع إلى الوراء وننظر إلى الخلف ، ونذهب إلى جرير وإلى الفرزدق وإلى امرىء القيس وإلى لبيد وإلى أمثال هؤلاء وهؤلاء ممن بعدت بيننا وبينهم الحقب ، ودالت بيننا وبينهم دول.

وفى عصر الخديوى عباس مثلا ترى الشعراء يتوجهون بشعرهم كله إليه يمدحونه . ويتزلفون إليه ، ويعيدون إليه المدح القديم فى ألوان جديدة ، وقل أن يكون فى القصيدة ماينبىء عما يعدو هذا الغرض ، فكيف نكون من هذه الكلمات روحاً قوياً وثاباً يفى بالغرض المقصود ، حتى نعمل منه سمطاً تتألق منه درر الشعر وجواهره ؟

الحق أنا لم نعرف رسالة الشعر إلا إلى حد قليل ، والحق أن جمهورنا العربى أيضاً لم يفهم رسالة الشعر؛ فشعراؤنا يحاولون جهد طاقتهم تعرف الرأى العام والناحية التي يتوجه إليها ؛ وهم يسعون إلى إرضائه بالقدر اليسير؛ لأن الرأى العام يكفيه جداً البيت الواحد تشير فيه إلى الدستور أو إلى الاستقلال أو إلى فرح الأمة أو حزنها؛ وليس هذا فهماً للشعر ، ولا فهماً لرسالته.

وقد يكون النثر قطع مرحلة أكبر من تلك التي قطعها الشعر ، بفضل نفر من الجهابذة الأعلام المتضلعين من اللغة والعلوم ، أما الأكثر ومن عداهم، فما زالوا فى حاجة إلى التغذية العلمية والمعارف الهامة من لغات مختلفة وآداب متعددة وعلوم متباينة، وهو ما لا بد منه للشاعر والكاتب ؛ وإنى لأذكر أنا الى عهد قريب لم نكن نعرف هذا الذى يستطيع وصف الغرفة فى شكلها الحديث، فلما توفرت لدينا طائفة من الكتاب الذين وفقوا إلى ألفاظ وأساليب جديدة ، سواء أكان ذلك بالخلق أم بالابتكار أو بالتعريب والتركيب أو بالنحت والاشتقاق؛ ولما أن ذاع هذا وكثر استعماله، أصبح التلميذ الصغير قادراً على وصف الغرفة ومحتوياتها أدق وصف.

واللغة العربية ضافية الثروة ، غنية الألفاظ ، كثيرة التراكيب، وهى كفيلة بتحقيق رسالة الشعر لمن يحسن استعمالها ، ويفهم غريبها وقريبها ، ويضيف إلى علمه بها علماً بمستحدثات الحياة من آداب وفنون فى الأمم الأخرى.

والخلاصة أنه متى وجد العقل الخلاق المبتكر ، والذهن الصافى الواعى؛ فيبتكر جديداً مع بقاء الأصل السليم فى اللغة على ما كان عليه من فصاحة وبلاغة ، استطعنا الوصول بالشعر إلى درجة قد تتيح لواحد منا الطمع فى الحصول على جائزة « نوبل » التي لم ينلها شاعر من شعرائنا حتى الآن.

عبد العزيز

والآن

ما رأى القارىء

فيمن هو أحق بزعامة الشعر؟

أرسل إلينا رأيك حراً صريحاً ، موضحاً اسم شاعر واحد يقع عليه اختيارك . ويجب أن يصلنا الرد داخل مظروف بعنوان « المعرفة » ، ومكتوباً عليه عبارة « الشعر والشعراء » .

وستفض هذه المظاريف فى يوم ٦ ابريل سنة ١٩٣٣ ، بمعرفة لجنة خاصة مكونة من كبار رجال الأدب واللغة والنقد والتعليم وأعلام الكتاب المعروفين .

وستعلن نتيجة الآراء جميعاً ، وعدد الأصوات التى حازها كل شاعر بالترتيب، مصحوبة بصورة الشاعر الذى نال أكثرية الأصوات ، فى العدد الأول من السنة الثالثة « للمعرفة » الذى يصدر فى أول مايو سنة ١٩٣٣

حرية التفكير في الشرق

[كتبت لجريدة « الجامعة الاسلامية » كبرى صحف فلسطين]

ومهداة الى شباب العرب

حينما وفد على رسول « الجامعة الاسلامية » الغراء ، الزميل الفاضل الأستاذ محيي الدين رضا ، يسألني في نبل وأدب ، أن أكتب له - في الحال - فصلا عن تاريخ الفلسفة الاسلامية ، أو الفرق الصوفية وتطوراتها ،أو في ما يزعم أو يظن أني مختص فيه،واقف نفسي على دراسته ؛ لم يكن من أمري — وأنا الذي يقدر هذا الظرف الصحفي الدقيق — إلا أن أضحك ملء فمي ، لهذا المطلب العسير ، يطلب في مثل تلك السرعة ؛ وفي أدق ساعات عملي الصحفي ضيقاً وحرجاً أيضاً ؛ لكنني لم أعدم مخرجاً من هذا المأزق الذي لايجدي فيه الاعتذار ، فانقلبت سائلا بعد أن كنت مسئولا ، وطالباً بعد إذ كنت مطلوباً ، فقلت : وهل ترى الكاتب يستطيع أن يكون حراً ، آمن النفس ،مطمئن البال إلى مايريد أن يكتب ، صادقاً في تأدية ما يطلب إليه من حق ودين، حيال مخالفيه في الرأي أو مناهضيه في الفكرة ؟

أحسب أن الكاتب في الشرق عامة ، وفي الشرق العربي خاصة ، مايزال يرسف في أغلال من عبودية الفكر ، ويخطو في قيود من حديد الأوضاع والتقاليد ، بل مايزال أبعد كتاب العالم أجمع ، عن التمتع بهذه الميزة السامية ، وتملك هذا الحق المكتسب بالنسبة للشرقي بما في طبيعته الشرقية الروحانية من نزوع الى الحق والخير والجمال .

وهأنذا أسمعك تبدد وهمي هذا بما تظنه من حق ، فتزعم أن علة ذلك راجعة إلى استعمار الغرب للشرق فحسب ؛ وأنه يوم يبيد الاستعمار تعود إلى العقول حريتها وطمأنينتها ، وأنا إذا كنت لا أنكر ما لهذه الحجة من قيمة ، إلا أني لا أظنها وحدها كافية لتعليل مانرسف فيه من استعباد وتأخر وجمود ، لأن بعض دويلات أوروبا — في القديم والحديث — لم يمنعها احتلال دول أخرى لها ، من الحرية الفكرية التي كانت سبباً — وأي سبب — في زوال الاحتلال ، ولماذا نذهب بعيداً وهاهي ذي « تركيا الحديثة » يصح اتخاذها دليلا على ماقدمت وإن كنا نخالفها نحن العرب الخلص في كثير مما انتهت إليه حالها الراهنة ؟

ولنقصر بحثنا الآن على الشرق العربي وهو مااصطلح على أنه منبت الاسلام ومنبعه، فاذا صح هذا الذي يزعمون - وهو صحيح لا يحتمل جدلا ولا مناقشة - صح لنا أن نتساءل : أي شطري العالم أحق بحرية الرأي والتفكير ؟

أهو الشرق أم الغرب؟

أما أنا فأزعم أن الشرق أحق بهذه الدعوى وأجدر، لأنها منه نبتت ، وفى ظل دينه السائد فيه عاشت ونمت . بينما كان الغرب يعيش فى ظلام دامس ، وفى ظل من التفكير ثقيل ، فلم يكن يسمح لانسان أيا كانت صفته ، أن يضمر ، فضلا عن أن يعلن، رأيا يخالف المجتمع ، أو يباين العصر الذى يعيش فيه . وقد كانت كلة « الهرطقة » وهى « الكفر» تخرج من فم رجل الكنيسة ، كافية لزج الملايين بله الآلاف فى أعماق السجون ، إن لم تودى بأرواح الكثيرين . فكم من دماء أهرقت ،وأرواح أزهقت ، وأعراض انتهكت، وجرائم ارتكبت، باسم الدين تارة ، وباسم الدفاع عن الدين تارة أخرى !

فى هذه العصور المظلمة التى كان يحدث فيها ذلك الاضطهاد لأسمى مافى الوجود من كائنات، جاء الاسلام باسطاً سلطان العقل بأوسع معانيه ، داعياً إلى دين الله بالحجة والمنطق، مطالباً بالبرهان والدليل ، حاثاً على تقديس الحرية الفكرية ، والأخذ بالعقل إذا ما تعارض العقل والنقل ؛ فكان ذلك أول دين سماوى نادى بتخليص العقل البشرى من القيود والأغلال، وكان من خير هذا المبدأ الحق الجديد ، أن هزم المسلمون — وكانوا قلة فى العدد والعدة — دولتى الروم والفرس ، وقد كانا يقتسمان العالم كله اقتساماً ، ويحكمانه بالسيف والمدفع، والباطل باسم الحق ، والظلم باسم القانون ، والوثنية باسم الدين ، ويخضعانه لطائفتين اثنتين لا ثالث لهما : رجال الدين، ورجال الحكم أو الملك . وإذن فلم يكن عجباً أن يبلغ الاسلام فى أقل من الثمانين عاماً ، مالم يبلغه قياصرة الرومان ، وملوك أنو شروان ، فى مئات من السنين .

أجل !إنه لم يكن عجباً أن نرى هذه الدولة الفتية ، دولة الاسلام الناشئة ، دولة العرب الساذجة ، تطفر طفرة واحدة من قبائل رحل لاتؤلف دويلة صغيرة ، لتترعم العالم كله من شرقيه إلى غربيه ، ولتبسط سلطانها على المشرقين ، حتى صح لهارون الرشيد أن يقول — وقد أمطرت السماء — : امطرى حيث شئت يأتى خراجك . فهل ترى التاريخ يعكس الآية فيصبح العرب أذلة صاغرين ، بعد أن كانوا أعزة سائدين ؟ وتصبح آية الرشيد آية الانكليز الآن ،الذين لاتغرب الشمس عن إمبراطوريتهم كما يدعون ؟

الحق أنا فى محنة طال عليها العهد ، حتى حبب إليها الركون إلى ربوعنا المباحة ، والاستقرار فى نفوسنا الملتاعة ؛ وها نحن أولاء نتجرع الكأس حتى الثمالة ، ونتجشأ الصاب والعلقم ، فإلى متى ياشيبة العرب ، وحتىمَ يامعشر الشرقيين ، وماذا أنتم فاعلون ياسلالة محمد بن عبد الله ؟

لقد سئمنا الذل والهوان ، وأتقنا الاستعباد والاستعمار ، فهل لم يئن الأوان بعد لتصحوا من هذا الرقاد ؟ إن ذلك فى مقدوركم أنتم ، وفى أيديكم وحدكم ، فاعملوا على حرية الفكر ،

ونادوا باستقلال العقـل ، وأعيدوا إليه سلطانه، فهو والله قوام دينكم ، عليه قامت دعوته ، وبه استتمت زعامته، ومن قال بغير ذلك ممن يلبسوز مسوح الوعاظ رياءً، ويتشحون بوشاح الدين ظلماً، فهو غير مخلص فى ما يدعى ، إنما هو للدين عدو ، وبه متاجر مساوم ، وللمستعمر مبشر وعضد.

إن التاريخ فى مختلف مراحله ، لم يحدثنا عن عصر من عصور الاسلام الزاهية ، دون أن يقرنه بالعدل والمساواة والحرية، وينعته باحترام العقل ، والرجوع إلى المنطق ، والاعتماد على الفكر . ولنا فى ذلك أسوة برسول الله وصحابته وأئمة دينه وتابعيه ممن كانوا يبرأون إلى الله من كل عمل يخالف روح الاسلام السمح ، وشريعة التوحيد الخالصة من القيود والتعقيد .

* * *

وبعد فليـكن الشرق شرقاً ، والغرب غرباً ، فسيعود الشرق قريباً إلى سابق أيامه الزاهية ، وماضى عصوره الذهبية، ليهديه إلى سبيل العلم الصحيح ، كما هداه من قبـل إلى الدين القويم؛ ووقتئذ ينتصر عليه نصرين: نصراً فى العلم ونصراً فى الدين .ووقتئذ أيضاً نعرف مقدار الحق فى قول « جون كريستوفر مارلو » أحد نقاد الانكليز فى القرن السادس عشر، الذى يقول :

« الشرق والغرب يساويان فى الميزان الجغرافى ـ تمام المساواة ـ الشمال والجنوب . تخالف تقاليد الشرق تقاليد الغرب ، كما تخالف أجواء الشرق أجواء الغرب ؛ وفى اختـلاف الأجواء اختلاف للبيئة ، وفى اختلاف البيئة اختلاف الذوق ؛ وفى اختلاف الذوق اختلاف التقدير ؛ ومن هنا يختلف التقدير والنظر إلى لباب الأشياء ، لأن الهادى إلى ذلك إنما هو الذوق والاحساس بالجمال قبل كل شىء . وفى اعتقادى أن ذلك الذى ينادى بفـكرة العالمية مشعوذ أكثر منه رسول تفكير »

وبعد ، فتلك خواطر سريعة، نرجو أن تكون باعثاً — لمن لديهم سعة من الوقت والتفكير — لبحث الموضوع من نواحيه العلمية والدينية والفلسفية المختلفـة ؛ ولعل مالنا من حق الزمالة على زميلنا العالم الجليل السيد الفاروقى، يشفع لنا فى هذه الكلمة السريعة ، التى أردنا بها الاجمال لا التفصيل والسلام ؟

الاسلامبولى

أسرار النفس وعلاقتها بالتنفس

عند الهنود

بقلم الاستاذ محمد فريد وجدى بك

الهند بيئة الأسرار النفسية من أقدم الأزمان ، فقد انهمك مفكروها وحكماؤها من أبعد العهود التاريخية، فى اكتناه سر النفس واستخدام قواها، فوضعوا لذلك الأساليب الكثيرة، ووصلوا منه إلى ما لا يتخيله المتخيلون، وصلوا إلى عرفان الغيوب ، والتسياح فى بقاع الأرض بالجسم المثالى للروح، بينما يكون الجسد ساكناً فى مكانه ، والبقاء تحت الأرض شهوراً بلا هواء، وغير ذلك مما لا يحصى . كل ذلك من استخدامهم قوى أرواحهم ومعرفتهم بوسائل ذلك الاستخدام.

تدعى الطائفة التى تجد من قديم الزمان فى التكمل فى هذه المعرفة باليوغى Yoghis ، وقد عنى اليوم كثير من علماء أوروبا بدراسة الخوارق التى تصدر على أيديها، وكتبوا فى ذلك أسفاراً.

ونحن نرى أن نلخص لقراء « المعرفة » ماقرأناه فيها :

إن كلمة يوغى مشتقة من الكلمة السنسكريتية (يوغ) التى معناها « اربطهما معا » ، والظاهر أنه يصعب تعليل تسميتهم بهذا الاسم أو إطلاقه على مجموع تعاليم عالية . وقد عللها الباحثون تعليلات مختلفة أقربها للصواب هى التى تذهب إلى تصوير اليوغى بصورة المرتبط بالجهود التى يقصد بها إخضاع الجسد والروح لسلطان الارادة .

والعلم اليوغى ينقسم إلى فروع عدة ، أولها : العلم بكيفية التسلط على الجسم .وآخرها : العلم الذى يكشف الوسائل للوصول إلى أعلى الكمالات العقلية . وإنا لن نمس هذا العلم الأخير من المعارف اليوغية إلا فى ما هو ضرورى لدراسة علم التنفس .

إن بالهند مذاهب عظيمة للعلم اليوغى، من أتباعها القسم الأكبر من الرجال المديرين لشئون البلاد ، وإن الفلسفة اليوغية هى القاعدة الحيوية لملايين من الناس هنالك ، ولكن التعاليم اليوغية السامية تتأثر بها بعض العقول العالية، ويكتفى السواد الأعظم بما يبقى من فضلات موائدهم.

وقد بدأت الأصول الغربية تنتشر فى الشرق ، فأصبحت التعاليم التى كانت محتكرة لدى العدد القليل من الممتازين معروضة أمام كل من أراد أن يدرك أسرارها .

وقد اهتم اليوغيون الهنود فى كل زمان بعلم التنفس غاية الاهتمام، لأسباب ستبدو للقارىء. وقد بحث رجال من علماء الغرب هذا العلم، ولكننا نظن أنه كان من حظ أحدهم وهو « بواسون

دولاريفيير » أن وفق لإعطاء القارىء الغربى الأصول الأساسية لعلم التنفس اليوغى والأساليب العملية لأنواعها التى يحرص عليها اليوغيون .

يقول اليوغيون: إن الانسان يتنفس لا ليعيش كما يتفق ، ولكن ليحصل على حيوية عظيمة ويكسب جسمه مقاومة كبيرة ضد الأمراض، وليستطيع أن يطيل أمد وجوده على الأرض .

وقد ذهب اليوغيون إلى أبعد من هذا ، فقالوا : ليس نتيجة التنفس أن يحقق الانسان صحته الجسدية فحسب ، ولكن يجب أن تكون نتيجته تكميل خصائصه العقلية أيضاً . وقد تأسست مذاهب فلسفية فى الشرق على علم التنفس وحده ، بحيث لو أدرك مراميها الغربيون وطبقوها على ما لديهم لأحدثوا بها الغرائب.

وإن أهل هذه الطائفة يراقبون تنفسهم مراقبة دقيقة ، ويذهبون فى أدائها مذاهب شتى ، لتكون ثمرتها التكمل الروحانى .

فاليوغى يحدث من الأعمال الرياضية التنفسية مايجعله حاكماً على جسده، ويستطيع بارادته أن يرسل إلى كل عضو من أعضائه سيالا قوياً من قوة حيوية يسميها « البرانا » ، فهو يعرف كل ما يعرفه الغربيون عن التنفس،ويزيد علمه العلم بأن الهواء يحتوى على شىء غير الأوكسيجين والآزوت ، يفعل فى الجسم غير مايفعله الأوكسيجين من الامتزاج بالدم ، وذلك الشىء هو «البرانا » الذى يجهله الغربيون . وهو يعرف وظيفة هذا العنصر الحيوى فى الجسم ، ويعرف كيف يستفيد منه.

يعرف اليوغى أن الانسان بالتنفس المرتب يوافق الذبذبات الطبيعية للهيولى، فيساعد بذلك على تكميل خصائصه الكامنة فيه ، ويعرف أنه بترتيب تنفسه لايتغلب على الأمراض فحسب ، ولكنه يخلص أيضاً من المخاوف والأوهام ، ومن جميع الانفعالات السافلة.

فلنرجع الآن إلى «البرانا » Brana التى يعتبرها اليوغى الأصل الأصيل فى الايصال إلى أكمل الحالات الحيوية والعقلية التى تقول الفلسفة الهندية إنها منبثة فى كل شىء على درجات متفاوتة حتى فى الجمادات، فهى إذن سيال عام سار فى كل شىء . ويقولون لايجوز الاشتباه بين البرانا والايغو Ego ، فان الأولى هى الأصل الحيوى، ولكن الثانية هى روح الله المنبثة فى كل روح آدمية . فالايغو تستخدم البرانا للظهور بمظهرها المعروف ، فاذا خرجت الروح من الجثمان خرجت البرانا من سلطانها،وبقيت مقادير صغيرة منها فى كل ذرة من ذرات البدن لتسمح لها بالدخول فى مركبات جديدة. وما زاد من تلك البرانا تلحق بمستودعها العام الذى تنزلت منه .

ولما تكون البرانا تحت تصرف الأيغو، يسود الوئام بين ذرات الجسم،ويكون مجموعها تحت سلطان الايغو .

وما الكهرباء والقوة الجاذبة والقوة المدبرة للكواكب والحياة الحيوانية إلا مظاهر مختلفة

لتلك البرانا المالئة للكون . وهى وإن كانت فى كل ذرة من ذرات المادة إلا أن مستقرها الهواء وإن لم تكن من مركباته الكيميائية. والحيوانات والنباتات تستنشقها مع الهواء ، فان لم توجد فيه هلكت الكائنات وعدمت الحياة،فهى تصحب الأوكسيجين فى دخولها فى الأجسام، ولكنها ليست منه فى شىء لأنها توجدحيث لا يوجد الهواء . ونحن باستنشاقنا للهواء نستنشق معه الأصل الحيوى العام فنستفيد منه الحياة والقوة . وكلما كان الهواء نقياً كان مقدار البرانا فيه أكثر ؛ ولذلك تحسن الصحة حيث يكون الهواء أكثر نقاءً .

فاذا أتقنا فن التنفس، استطعنا أن نختزن مقداراً كبيراً من البرانا فى مخنا ومراكزنا العصبية لنستخدمه عند الضرورة . وإننا لنستطيع أن نختزن هذه البرانا كما تختزن البطارية الكهربائية مقداراً من الكهرباء . وإن أكثر رجال العلوم الخفية ، لاعلة لإظهار أعمالهم الخارقة للعادة إلا معرفتهم هذا السر واستخدامهم للبرانا التى يختزنونها فى أجسادهم .

واليوغيون الهنود يعلمون أنهم بوساطة التنفس — على أساليب خاصة — يتصلون بالمستودع العام للبرانا فيأخذون منه المقدار الذى يحتاجون اليه منها . فيتوصلون بذلك إلى تقوية جميع أجزاء أجسامهم حتى المخ الذى يثيرون فيه قواه الكامنة فيكتسب بذلك قوة نفسية عظيمة .

فالذى يستطيع أن يستمد من هذه البرانا — سواء أعلم بذلك أم لم يعلم — تشرق عليه القوة والحياة فيتسلط بهما على غيره ، بل يستطيع أن يمد غيره بهذه القوة فيرد عليهم صحتهم الضائعة ؛ وما حوادث الشفاء، التى تصدر على أيدى المغنطسين ، إلا بسبب مالديهم من البرانا المختزنة ؛ وأكثرهم من رجال الغرب يجهل علة هذه القدرة فيه .

وإن علماء الغرب لعدم وجودهم أثراً للبرانا فى تحليلاتهم الكيميائية عمدوا إلى إنكارها ، ولكن الأطباء منهم ينصحون مرضاهم بالذهاب لبعض الأماكن، تحققاً منهم بأن فى هوائها قوة على مدافعة الأدواء غير نقاء الهواء .

وكما أن الدم يمتص الأوكسيجين ويستخدمه لتقوية الأعضاء ، كذلك يمتص الجسم البرانا من الهواء ويستخدمها فى تقوية مجموعه العصبى .

وبما أن كل فكر نُعمِله، وكل عمل نحدثه، وكل جهد إرادى نبذله، وكل حركة عضلية نؤديها لا يمكن حدوثها إلا بفقد تكابده القوة العصبية ، فنحن إذاً فى حاجة شديدة إلى تجديد ذلك الأصل الحيوى فينا وهو البرانا . وإذا تقرر أن مستودعها الهواء أدركنا أن تأسيس تنفسنا على قاعدة حكيمة من أوجب الواجبات .

محمد فريد وجدى

التربية فى الأسرة

بقلم الأستاذ أحمد فهمى العمروسى بك

وقفنا بك فى العدد الماضى من «المعرفة» عند واجب الأم فى مدة الحمل ؛ وفى هذا العدد يجدر بنا أن نتساءل : ألا يجب على الأم فى هذا الظرف العجيب ـ الذى تغرس فيه بذور الغرائز ، وأصول الاستعدادات والميول فى نفس الطفل ـ أن تعتزل الحياة الاجتماعية العامة ، بعض الشىء ، فلا تتقيد بتلك الزيارات الطويلة المملة للأقارب والأباعد ؟ ألا يجب عليها ألا تسرف فى غشيان دور الخيالة والتمثيل ، وأن تقتصد فى التأنق والتجمل ، إذا كان فيهما ما يضيق على الجنين الخناق فى مسكنه ومضجعه ، فتعوق بذلك حركة الدورة الدموية فيه ، وتوقف نموه بعض الشىء ؟

وأول واجب عليها ، إذا رزقت طفلا ، أن تغذيه بلبنها ، إذا كانت صحيحة معافاة ، لأن لبنها هو الغذاء الطبيعى الوحيد ، الذى يناسب بنية طفلها وحاجاته ؛ وهو الذى يقيه الأمراض التى تهدده ؛ أما إذا وكلت أمر إرضاعه إلى مرضعة أجنبية ، فان أقل ما يقال فى هذا ، إن إدخال لبن أجنبى فى الأسرة ، هو إدخال دم أجنبى فيها ، وبالتالى إدخال وراثة أجنبية فيها ؛ ذلك أن الناس لا يهتمون إلا بلبس المرضعة وغذائها ، دون أن يعنوا بقياس درجة ذكائها ، وتبين ميولها وعاداتها وأخلاقها ، مما يؤثر تأثيراً كبيراً فى نفس الطفل وعقليته .

يقول هربرت سبنسر ، فى أهمية الغذاء واختيار الأغذية ، ومعرفة القيمة الغذائية لكل طعام ، والوقوف على أسرعها هضما ، وأسهلها تمثلا بالبنية ، وأنسبها لتركيب الأجسام ، مع مراعاة البيئة التى يعيش فيها الإنسان ، والأعمال اليومية التى تفرض عليه : « إن الأمم ذات السيادة والسيطرة ، هى التى تعرف كيف تتغذى » .

إن هذا القول ، وإن كان فيه شىء من المبالغة المقصودة ؛ إلا أن التاريخ والتجربة يؤيدانه إلى مدى بعيد ؛ وقد أجريت تجارب فى بعض مدارس فرنسا حديثاً ، أسفرت عن أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين نوع الغذاء والأخلاق ، إذ شهدوا أن درجة تقدم التلاميذ ونجاحهم فى الدرس ، وخضوعهم للنظام ، كانت تنمو وتطرد باطراد الغذاء المنظم ، الذى كان يقدم لهم ؛ أما السير على غير هدى فى اختيار الغذاء وتحديد كميته للأطفال والرجال ، فينشأ عنه انتشار أمراض المعدة ، واضطراب الجهاز الهضمى ؛ وقد شوهد أنها أكثر انتشاراً فى الطبقات الغنية منها فى الفقيرة .

والهواء النقى غذاء ضرورى للطفل ، كاللبن وغيره من الأطعمة الأخرى سواء بسواء ؛ فقد يستغنى الانسان ، عن الأكل والشرب ، ساعات وأياما ، ولكنه لا يستطيع بحال أن يستغنى عن استنشاق الهواء بضع دقائق ؛ فيجب على الأبوين أن يعنيا برياضة طفلهما كل يوم فى المتنزهات ، حيث يوجد الهواء الطلق ، والشمس ، والخضرة ، وأن يباشرا ذلك بنفسهما كما يفعل الأنجليز ، خاصتهم وعامتهم .

والقارىء يعرف بلاشك مقدار الضرر الذى يلحق بالطفل إذا وكل أمره إلى الخادمات، فقد رأيتهن مراراً وتكراراً يتركن الطفل فى عربته يبكى ويئن تحت أشعة الشمس المحرقة ، يستغيث ولا يغاث ؛ بينا تلهو الخادم ، بالمحادثة مع الرجال من الخدم وغيرهم ، ثم هى بعد ذلك تأتى وتوسعه شتما وسباً ولكما أحيانا .

ولكى تتبين مبلغ عناية الانجليز بكل ماله علاقة بتربية أطفالهم، أذكر لك فقرة من كتاب «التربية فى انجلترا» تأليف الكاتب الفرنسى «مسيو دى كوبرتين» ، عن الأسرة الانجليزية :

« يرزق الانجليزى عادة جماً غفيراً من الأولاد يجيئون متتابعين، فيعنى بوضعهم فى حجرة منعزلة خاصة بهم تجرى عليهم فيها أحكام التربية فى سنيهم الأولى وتسمى بالمربى Nursery . والعوامل الأساسية التى يجب أن تتوافر فى المربى ثلاثة : الأم ، المربية ، الهواء . وقد وصف الشاعر الشهير « راسكين » المربى الراقى ذاكراً عهد طفولته فقال : إنه حجرة فى الطبقة الاولى من المنزل فسيحة الأرجاء ، متجددة الهواء ، وفيرة الضوء ، تامة النظافة ، غاية فى السذاجة، ينام فيها الطفل ويأكل ويرتع ويلعب ، لايخشى كسراً لآنية ثمينة ، أو إقلاق راحة أمه المريضة ، أو التهويش على أبيه المنكب على عمله ، بها حوض كبير يستحمون فيه كل صباح بالماء البارد ليزدادوا قوة ونشاطاً ؛ ويراعى فى لباسهم السذاجة والسعة والنعومة ، إذ ليس الغرض منه الزينة والتباهى بجمال الثياب ، بل الغرض الوقاية من البرد والمطر والهواء مع تمتع الاعضاء بالحركة الحرة والجرى واللعب على مايشتهى الأطفال . وهم يأكلون معاً فى مواعيد مقررة ، وطعامهم غير متأنق فيه ولا متكلف ، ويخرجون كل يوم للتريض صيفاً وشتاء ، مستنفدين الساعات فى الجرى والوثب والطفر وتسلق الأشجار والتدحرج على الاعشاب ، متحملين فى ذلك تبعة أعمالهم ، وعليهم وحدهم يقع الضرر من عدم إعمال الروية والتبصر فى عواقب الأمور قبل الشروع فيها» . ثم يقول : « وبينما الطفل الانجليزى يشب فى المربى على مبادىء الديموقراطية الصحيحة يعيش فيه كفرد من أفراد المجتمع له مالهم وعليه ماعليهم لاسلطان له على أحد من إخوته ولو كان أصغر منه سناً ، نجد الطفل الفرنسى يعيش فى حضن أمه ملازماً لها ملازمة الظل للعود ، ويجلس على المائدة مع أمه وأبيه وإخوته متى استطاع الجلوس فيهوش عليهم ببكائه ، ويوسعهم من تدلله وكبريائه ، والكل خاضع لأوامره ومنفذ لرغائبه، فعجيب ألا يشب هذا الطفل على حب الذات وقلة الاكتراث للتبعات . »

وإذا انتهى طور الطفولة الأولى فى المربى ، انتقل الأولاد منه إلى مدرسة هى فى نظر الانجليز أهم المدارس نفعاً ، وأنجعها فى نفوس النشء أثراً ، ألا وهى الأسرة . كثير من الأمم يعتقدون أن الخير كله فى معالجة أبنائهم بالذهاب إلى المدرسة ، ظانين أنها خير مكان يقضى فيه الطفل شطراً وافراً من عمره . أما الرأى العام فى انجلترا ، فلا يذهب مذهبهم، ولا يريد أن ينتهج مسلكا يناقض النواميس الطبيعية وبديهيات المنطق .

يقول الانجليز: كيف يعقل أن يكون بيت الانسان أقل البيئات ملاءمة لأولاده، ومعاشرته والديه قل فائدة من معاشرة الغرباء؟ ألا إن الانجليز يعدون عيباً وعاراً ، ألا أن يكون الإنسان هو المدرس الأول لأبنائه ، وألا تكون بيوتهم مجهزة بكل أداة صالحة للاعداد الكامل للطفل من وجهتى التربية الخلقية والبدنية . والغرض الذى ترمى اليه الأسرة الانجليزية من تربية أبنائها فى هذه السن ، والذى يجب أن يكون غرض كل أسرة من الأمم الأخرى ، هو أن يشب الأطفال أصحاء البنية ، أقوياء الأجسام ، وأن يتعودوا - بالمران والدربة - العادات الحسنة - والأخلاق القويمة ، وعلى ذلك تنحصر مهمة الأسرة فى التربية البدنية والخلقية لاغير ، أما التربية العقلية فتأتى بعد ذلك ، لأن العقل لايظهر إلا فى سن متقدمة .

لذلك كان يقول المربى الانجليزى « توماس أرنولد » : « إن التعجيل بالأطفال إلى طلب العلم وشحن قرائحهم بمسائل علمية لايفهمونها ، قد يؤدى بغضارتهم ونضرتهم ، ويطفىء فيهم سرعة البادرة ونور البديهة ، ولن يلاقى الأطفال فى حياتهم الأولى وبالا شراً عليهم من سبق عقولهم لأبدانهم » . وكان - وهو ناظر لاحدى المدارس - يرتع ويلعب مع تلاميذه الصغار ويخرج معهم يترامون جميعاً بكرات الثلج ، ويسبحون فى الماء ، ويتسابقون فى الجذف بالزوارق ، وكان يقول: « إننا نرمى إلى خدمة الجسم وتقويته إلى أقصى حد مستطاع ، لا للتباهى به أو استخدامه فى قضاء مآرب شخصية ، بل لغرض أسمى وأرفع ، هو حماية الضعيف ونصرة العدل فى العالم أجمع ، وفتح الدنيا ، ووراثة الأرض ومن عليها » . ثم يقول : « وحيث إننا نريد أن ننصب أنفسنا الخير الانسانية ، فأول مانفرضه على أنفسنا هو أن نكون أعزاء الجوانب أقوياء السواعد » .

وفى هذا كان يقول « عروة بن الزبير » من ألف وثلثمائة سنة لولده : « يابنى العبوا فإن المروءة لاتكون إلا بعد اللعب » ؛ والمروءة هى القيام بما فوق الواجب ، كالنجدة للمستغيث ، وحماية الضعيف

وإلى القارىء صوتاً من أمريكا فى هذا الصدد . يقول « أميرسون » : يجب على الانسان ان يكون حيواناً قوياً ، إذا شاء أن يكون النجاح حليفه فى هذه الحياة ، والأمة التى تريد أن تتبوأ مقعد صدق بين الأمم الراقية يجب أن تتألف من أفراد كالحيوان بأساً وقوة

والواقع أن سلامة النفوس تتوقف إلى حد بعيد على صحة الأجسام ؛ فمن النادر جداً أن

نجد ذكاءً متوقداً فى جسم خامد . والمشاهدات اليومية تدل على أن التردد فى الأعمال من شأن ضعاف الأجسام ، أما الأقوياء الأصحاء فهم موطن الجرأة ، والاقدام ، والثبات .

ويشاهد فى مجال الأخلاق كذلك أن الحلم،وطيبة القلب، ورحابة الصدر، لاتكون إلاحيث تكون الصحة ، أما ضعف الجسم واضمحلال البدن فانهما مدعاة لسرعةالغضب وضيق الصدر، ومبعثة للظلم والجور فى كثير من الأحيان .

نقف عند هذا القدر من التربية ، البدنية لنقول كلمة ختامية فى التربية الخلقية ، وهى لاتقل عن الأولى خطراً واعتباراً .

التربية الخلقية

إن الولد الصغير يتأثر منذ الولادة بالبيئة التى يعيش فيها،وينظر إلى ما حوله من الأشياء نظرة المتحير المندهش الذى يجهل فيها كل شيء ويريد أن يقف منها على كل شيء .

والذى يساعد على تأثره بالبيئة المحيطة ، مرونته العظيمة وقابليته السريعة لانطباع صور الأشياء فى ذهنه وبقائها فيه زمناً طويلا .

ومخ الطفل فى سنيه الأولى يحفظ عدداً عظيما جداً من الألفاظ والعبارات بسرعة مدهشة، ثم هو يقلد تقليداً محكما (وأتوماتيكيا) كل مايصدر عن والديه والمحيطين به ؛ فابتساماته الأولى وإشاراته الأولى محاكاة وتقليد ليس غير، وكذلك الحال عندما يمشى الولد مشية أبيه ويتكلم بألفاظه وعباراته ،وكذلك البنت تلبس مثل أمها وتمشى مشيتها وتنطق بلغتها، وحتى إذا كان فى نطقها بعض العيوب فانها تنقله عنها .

وبالاختصار نقول: إن مخ الطفل فى هذه السن الصغيرة يشبه فى سرعة التقاطه صور المرئيات الآلة الميكانيكية المسجلة ؛ بل هو يتحدى أعظم تلك الآلات سرعة ودقة، ففيه تنطبع الأقوال والحركات والاشارات كلها كما هى بلا تغيير ولا تبديل ، وبدون تمييز بين الخبيث والطيب ، والصالح والطالح .

فواجب الوالدين والأهل إزاء هذه الآلة المسجلة البديعة أن يتخيروا أحسن ما عندهم من الألفاظ والعبارات التى يتكلمون بها أمام الأطفال ، ويعنوا بألا يقع نظرهم إلا على النماذج الحسنة والمثل الصالحة .

ولنذكر لقراء « المعرفة » على سبيل التمثيل حالتين هامتين :

الأولى: يجب على الأهل أن يجتنبوا مااستطاعوا المنازعات والمخاصمات الزوجية أمام الأطفال، فانها تنقش فى أذهان الأطفال ويبقى أثرها فيها مدى الحياة ، بخلاف الزوجين فانهما لايلبثان أن ينسيا كل ما وقع من هذا القبيل بينهما لكثرة مشاغلهما،ولأن الحياة الزوجية لاتخلو منها.

الثانية : قد يبيح الانسان لنفسه فى منزله أن يتكلم بألفاظ وعبارات لايستطيع أن يتكلم

بها فى المجتمع، فاذا خلا بزوجه قد يتناول مثلا سير الناس بشىء من الذم والقدح، كما هو المشاهد فى كثير من الأحيان ، فاذا قيل ذلك أمام الأولاد الصغار ، غرس فى نفوسهم أقبح العيوب وأشنع العادات ، كالغيبة والحسد والحقد وما إلى ذلك .

هذا هو الشق السلبى من التربية الخلقية فى الأسرة ؛ إلا أنه يكفى أن يمتنع الوالدان عن ارتكاب مثل تلك الهفوات لتكون بيئة الأسرة بيئة صالحة لتنشئة الأطفال تنشئة حسنة .

والشق الثانى إيجابى : ويجب على الوالدين إزاءه أن يبثا فى نفوس أبنائهما بعض الفضائل الخلقية الأساسية التى تقوم حائلا منيعاً أمام رغائب النفس فتمنعها من السقوط فى شهواتها .

وتلك الفضائل هى بمثابة الضابط الذى ينظم أحوال النفس، كما أن المجموع العصبى فى الجسم هو الضابط الذى ينظم حركات أعضائه المختلفة ويوزع عليها جهوده، كل عضو بنسبة العمل الذى يؤديه للمجموع .

وإن طبيعة الطفل نفسها هى التى تملى علينا نوع الفضائل الخلقية التى يجب أن نعنى ببثها فيه، ونقشها فى ذهنه نقشاً يبقى فيه مدى الحياة .

إننا إذا تأملنا تلك الطبيعة ، ودققنا النظر فى أطوارها وأحوالها ، لا نلبث أن نتبين فيها خصلتين بارزتين :

الأولى: عدم الاستقرار ، وسرعة التنقل من فكرة إلى فكرة ، ومن عاطفة إلى عاطفة ، ومن عمل إلى آخر ، دون مناسبة أو رابطة ، فتراه يغضب ويرضى ، ويضحك ويبكى على التوالى ، بسرعة مدهشة ، وبلا داع ، أو لداع تافه لا يذكر .

وهذا النزق، وهذا الطيش، كانا من أهم مميزات الانسانية فى طورها الأول ، ولا زالا ظاهرين فى الأمم المتأخرة التى لا تزال فى أحط درجات الحضارة والعمران. فترى الرجل منهم يتهيج بسرعة البرق لأقل الأسباب وأوهاها ، ثم لا يلبث أن يهدأ ويسكن لكلمة بسيطة توجه إليه . فبينا هو عدو مبين ، إذا به صديق حميم ؛ وتلك حال يعرفها السائحون والكاشفون ، وكثيراً ما يستغلونها لفائدتهم ، وإنجاح مشروعاتهم فى تلك البلاد . وقد قطعت الإنسانية شوطاً بعيداً فى هذه السبيل ، وظلت أجيالا وقرونا حتى انتقلت من الخفة والطيش إلى الرزانة والاستقرار ، اللذين نشاهدهما الآن فى أفراد الأمم الراقية .

هذه هى سبيل الأمم فى التدرج فى الرقى ، وتريد التربية أن تتدرج بالطفل فى هذه السبيل، ولكن على أن تقطع فى بضع سنين الأدوار التى قطعتها الانسانية فى عدة قرون .

وعلاج الاطفال فى هذه النقطة يسير لا يحتاج الى عناء كبير ؛ ذلك أنه يوجد فى الطفل ــ بجانب نزقه وخفته ــ ميل كبير الى التعود السريع ، فتراه إذا أتى عملا جملة مرات يألفه ويعتاده

ويواظب عليه بدقة مدهشة ، لدرجة أنه يغضب إذا اضطر للعدول عنه . فاذا أجلسته إلى المائدة فى محل معين أياماً متتالية،فانه يسرع اليه ويجلس فيه من تلقاء نفسه، وإذا اعتدى عليه أحد من إخوته وانتزعه منه ،فانه يغضب ويغادر حجرة الأكل؛وكذلك يتعود الأكل بأدوات مائدة معينة، ويحب ألا يخدمه إلا الخادم الذى اعتاد أن يخدمه ، وهكذا.

الخصلة الثانية : ميله الفطرى إلى تجاوز الحد فى كل شىء وبلوغ الغاية فى كل مأرب ؛ فاذا أحب شيئاً، فانه يذهب فيه إلى أبعدمدى ـ إلىدرجة النهم ـ واذا منع عنه فانه يغضب ويبكى ويتمرغ على الارض ، كما يقول « دارون » ،ويضرب وجهه بيديه، ويدفع كل مايعترضه من الأشياء فى طريقه ، حتى ليخيل للانسان أنه اذا تركه وشأنه على هذه الحال يموت غيظا وكمدا .

فالتربية الحقة تحتم وضع حد لهذه العواطف الثائرة، التى اذا لم يكبح جماحها فى الأطفال منذ الصغر ، ألقت بهم فى هاوية سحيقة لامنقذ لهم منها .

ولقد صور الشاعر الالمانى العظيم (جوته) ـ منذ مائةعام تقريبا ـ مقدار تلك العواطف للانسان إذا لم تحد... فى شخصية (فاوست) الذى يحدثنا التاريخ عنه بأنه رجل عاش فى القرن السادس عشر للميلاد ، وكان مثالا بارزاً للتعطش الزائد الى ملاذ الحياة جميعا، والانهماك فيها، وبلوغ أقصى الغايات فى كل مايريد من علم ونفوذ واستمتاع ، فكانت عاقبة هذا الشره غير المحدود، أن عاش طول حياته يعانى أشد الآلام، ويقاسى أمر الأحزان ، وقصته مشهورة معروفة وهى تبسط كل ما أجملناه .

وقد توصل علماء النفس فى هذا العصر ـ بعد البحث والتنقيب والتجريب ـ الى معالجة هذه الخصلة فى الأطفال ، وقرروا أن الطفل فى سنيه الاولى يكون فى حال عقلية شبيهة بعقلية النائم بطريق الاغواء أو الايحاء المغناطيسى .

التنويم المغناطيسى

كلنا يعرف أنه يشترط لنجاح التنويم المغناطيسى شرطان اساسيان :

الاول: أن النائم يكون فى حالة تبعية تامة للمنوم، فتراه كأن إرادته قد سلبت ، وكأن عقله قد ألغى ، وخلا من كل فكرة ، وكأنه قد أصبح فى عزلة تامة عن الوسط المحيط به ، فلا يرى إلا شخص المنوم ،ولا يسمع إلا كلامه . وعلى ذلك فكل فكرة يوحى بها إليه ، تدخل ذهنه فلا تجد فيه فكرة أخرى تنازعها وتعارضها ، فيطيعها وينفذها بالفعل .

الشرط الثانى : يجب على المنوم أن يوحى الى النائم الأفكار بصيغة الأمر « إنى أريد » وأن يشعره بأن أمره نافذ لامحالة ،وأن واجبه أن يطيع ويمتثل لهذا الأمر ، أما إذا خاطبه بغير صيغة الأمر الحاسمة ، بأن شرع يناقشه فى الفكرة الموحى بها ، فقد زالت كل سلطة له عليه .

وهذان الشرطان متوفران فى الطفل فى علاقاته مع المربى والوالدين .

أولاً لأنه فى هذه السن الصغيرة ، فى حالة تبعية لمربيه ولوالديه، شبيهة بتبعية النائم للمنوم

السابقة الذكر : فان ذهن الطفل ، وإن لم يكن خالياً من كل نقش (Tableau Rase) ، إلا أن ما فيه من ميول وغرائز وتصورات شيء يسير لا يستطيع أن يقف حائلا دون دخول الأفكار الجديدة فيه ، ولذلك كان الطفل سريع التأثر بالقدوة والمثل ، سهل الانقياد ، شديد الميل الى التقليد والمحاكاة .

الثاني : لأنه إذا خاطبه المربى بصيغة الأمر ، فانه يمتثل أوامره ويطيع نصائحه بلا تردد ولا توان . والتجارب البسيطة الآتية تؤيد ذلك كل التأييد :

إذا وقفت أمام طفل عمره سنتان ونصف سنة ، وقد شرع فى أكل قطعة من الخبز ، وقلت له بصوت عال وبدون إبداء أى سبب : « الآن قد شبع الطفل » ، والحال أنه لم يتناول إلا اللقمة الأولى فانه يلقى بقطعة الخبز الباقية على المائدة وينفض يده منها ، ويظهر أنه قد شبع تماماً .

وقد أمكن بالطريقة عينها إقناع أطفال فى سن الرابعة بأن الألم الذى يشكون منه عقب وقوعهم على الأرض ـ مثلا ـ قد زال تماماً ، وأن ما به من عطش زائد قد أطفىء وزال كذلك ؛ كل ذلك بشرط أن يكون الكلام الموجه إليهم فى هذا الصدد بصيغة الأمر القاطعة ، من غير إزعاج الطفل لايقاع الرعب فى نفسه .

بهذه الطرق الحكيمة ، والأساليب العلمية الصحيحة ، يجب أن نأخذ النشء من بدء حياتهم حتى يشبوا على ضبط أنفسهم بأنفسهم ، ويتعودوا إيقاف كل رغبة من رغباتها عند حد معين ، فلا يطلقون العنان لواحدة منها ، حتى تتعدى طورها وتجاوز حدها ، فتضر بالمجموع ضرراً قد يورده موارد الخسران والهلاك ؛ فحياة الفرد كحياة الأمة ، توازن قوى يحتوى بعضها بعضاً ، ويدفع بعضها بعضاً ، فاذا اختل هذا التوازن أعقبه الهلاك والفناء .

يقول مسيو أميل دوركين فى كتابه « التربية الخلقية » : إن أمة لا تفرح بالفن ، ولا تتذوق جماله ، أمة متوحشة ، ولكنها من جهة أخرى ، إذا لم تشتغل إلا بالفن خاصة ، مهملة بذلك شئونها الحيوية الجدية الأخرى ، بشرها بأن عمرها قصير وأيامها محدودة .

وقصارى القول أن النشاط الانسانى يجب أن يخضع فى جميع نواحيه لنظام خاص ، وأن تقف كل ناحية منه عند حد معين ، وغاية محدودة ؛ فكما أن الانسان إذا أراد أن يطفىء ألم الجوع مثلا ، أخذ مقداراً معيناً من الغذاء ، كذلك الحال فى المعقولات ، فان الاجتهاد فى تحصيل العلم إلى أقصى مدى ، يضر أولا بالمجموع العصبى ذاته ، كما يضر بقوة الارادة التى تأخذ طبعاً فى الضمور والاضمحلال ، كلما غلا العقل وتوغل فى كسب العلم .

إن جهود الفرد محدودة ، كما أن جهود الأمة محدودة ، فيجب إذا أراد كلاهما أن يعيش عيشة منظمة ، أن توزع تلك الجهود على ضرورات الحياة المختلفة ، كل بنسبة أهميته ؟ .

أحمد فهمى العمروسى

هل التاريخ علم؟

بقلم الدكتور عبد الرحمن شهبندر

إن انتشار الكذب الصريح فى المدونات على أنواعها – ولاسيما ما كان من قبيل الدعايات فى الصحف السيارة ، والكتب المأجورة ، والاعلانات العلمية فى ظاهرها ، التجارية فى باطنها — كل ذلك أحدث فى قلوب أهل الجيل الحاضر — حتى الدهماء من الناس – شكاً فى صحة التاريخ من حيث هو تاريخ .

فلو أننا صدقنا مثلا كل ما كتبه الأدباء من المقيمين فى المملكة العثمانية على العهد الحميدى عن السلطان عبد الحميد ، خصوصاً فى الفرص السانحة ، كيوم ولادته أو يوم جلوسه لقلنا : إنه كان رسول الرحمة تفضلت به العناية لانقاذ البشر من براثن الظلم وأنياب الشر ، وإن فضله العميم فى هذا المضمار لم يكن دون فضله فى تنوير عقول الناس وتزويد النشء الحديث بالعلم والفن ، مما يصغر أمامه العصر الذهبى على عهد العباسيين ، ويتضاءل عنده خليفة بارز كالخليفة عبد الله المأمون !

وعلى العكس من ذلك لو صدقنا كل ما كتبه خصوم هذا السلطان ، ممن قاوموا الاستبداد وصارعوا الاستعباد ، لقلنا إنه كان سو[illegible] [illegible]اب أرسل للقضاء على الأبدان والأرواح والعقول فى وقت واحد ، وإن النطاق ال[illegible]يف الذى أقامه حول « يلدز » من الحرامى والجواسيس ، لدليل قاطع على مايخامر نفسه من الهواجس التى هو أعلم الناس بأسبابها ، فالخائن خائف ، والجواسيس مرايا نقية تنعكس عليها صور الذين يستخدمونهم .

وحدث لى [illegible] [illegible]رجت إلى الثورة فى شهر أغسطس من سنة ١٩٢٥ [illegible] أن [illegible] المحتلة بتا أوهمتها من سفرى مغربا ، فى حين كانت تتوقعه إلى الشرق ، فلما وصلت – وأنا فى طريقى إلى جبل الدروز – إلى مأمن فى غوطة دمشق ، أقمت فيه يوماً أو يومين ، تناولت بعض الصحف اليومية ، فاذا فيها بالعنوان الكبير « القبض على الدكتور شهبندر » ، وتحت هذا العنوان قرأت التفاصيل : كيف اهتدى إلىّ رجال الأمن فى (الزبدانى) ! وكيف ساقونى إلى (دمشق) ! وأودعونى دائرة الشرطة ! فكان الناس يذهبون لرؤيتى ، فلا يجدون لحسن حظى وسوء حظ سيارتى ، إلا أنها هى المقبوض عليها ، والمودعة فى السجن رهن التحقيق ليقرر لصوص الاستعمار ابتلاعها حتى من غير حكم صادر من محكمة ولو تلفيقاً .

وحسب الدعايات الكاذبة احتقاراً أن يصبح الدعاة المأجورون الذين يروجون الباطل سبباً

فى شك الناس فى صحة الحق ، فمن أحق بالاحتقار ياترى ممن يسبل على شمس المستنيرين حجابا كثيفاً من الأكاذيب والأضاليل ؟

وللحكماء الطبيعيين اعتراضات علمية وجيهة على التاريخ ، خلاصتها أنهم ينكرون عليه أن يدعى « علماً » ، لما تعودوه من حصرهذه الكلمة فى الموضوعات التى يقتلونها بحثاً فى مخابرهم وحقول تجاربهم، وإذا هم لم يتمكنوا من إعادة هذه الموضوعات وتكريرها بأحوالها وملابساتها فى الوقت الذى يختارونه ، فهم على أقل تقدير يضبطون أوقاتها أو يستطيعون مشاهدتها بدم بارد بعيد ـ جهد الطاقة ـ عن المؤثرات الخاصة والصبغات المغرضة ، كما هى الحال فى مشاهدة الكسوف والخسوف ؛ أماالتاريخ فهو ـ فى نظرهم ـ فن من الفنون ممزوج دائماًوأبداً بالعوامل النفسانية المنفعلة والعواطف المضطربة ، شأن سائر الروايات والأخبار والأقاصيص فتكتسب هذه من الشوائب فى جولانها فى صدور الرواة وخروجها من أفواههم . مايكتسبه ماء النيل من الكدورات فى سيله فى الوديان من منبعه إلى مصبه .

فلا عجب والحالة هذه أن يعرف اللورد (اكتن) العلم بأنه : ضم مجموعة كبيرة من حقائق متشابهة تحت وحدة مؤلفة من إطلاق قياسى أو قاعدة عامة أو دستور شامل ؛ مما يمكننا أن نتنبأ بالتأكيد عن تكرر الحوادث المتماثلة فى الأحوال المعروضة .

وبسبب هذا التعريف الرياضى الدقيق أو ماشابهه من التعاريف الحادة المانعة . لايعد التاريخ علماً ، وذلك :

(أولا) لأن المفروض ـــ حتى فى التاريخ نفسه ،دع عنك العقائد والأديان والأخلاق ـــ أن للانسان جزءاً اختيارياً أو إرادة تعمل من نفسها وبوحيها ، فحصر هذه الإرادة فى دستور علمى ثابت لايتغير ولايتبدل كدساتير الجاذبية والحرارة والكهربائية والنور . يقضى على فكرة الاختيار قضاءً مبرماً ، ويذهب بما يدعيه الانسان من حرية فى العمل . ومايقع عليه بسببها من تبعة مسؤولة ، إذ يجعله آلة ميكانيكية تعمل بمحرك خارجى ليس إلا .

(ثانياً) لأن الظواهر التى بنى عليها التاريخ فى كثير من الأحيان ،ليست أكيدة إلى درجة يستطيع أن يعتمد عليها العالم المحقق باطمئنان ؛ فماقول القراء الكرام مثلا ، فى أن هنالك بين أساطين أهل العلم فى ديار الغرب ـ أمثال « دافيد فريد ريخ شتراوس الألمانى » وأشياعه من المعاصرين ـــ من ينكرون مجىء السيد المسيح ، أوعلى أقل تقدير ، من ينكرون وجود شخصية تاريخية تنطبق عليها هذه الأوصاف المذكورة فى الأناجيل من رؤية الخوارق فى السماء ، وعمل المعجزات على الأرض ، وسكوت التاريخ المعاصر عن ذلك بتاتا ؟

إن هذا العقل العلمى لم يجد فى ماتمازج من الأخبار الممكنة والمستحيلة منفذاً إلى الاطمئنان ، بل ضرب بالجميع عرض الحائط ، وأنكر وجوداً مقدساً يسجد له فى عصرنا هذا مئات الملايين من أرقى شعوب الأرض .

(ثالثاً) لأن الظواهر التاريخية المدونة قد انقضت وأكل الدهر عليها وشرب ، فليس في المقدور استعادتها لمراقبتها من جديد . وأما الذين شاهدوها ووصفوها أو تقفلوا خبرها من الأفواه ودونوه كما سمعوه ، فلم يكونوا مزودين بالعلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وخصوصاً بعلم النفس ؛ فيتمكنوا من فهم الأسباب الطبيعية والبواعث الداخلية لتفسير الحوادث والماجريات .

وعلاوة على ذلك فالحوادث التاريخية التي تجرى في يومنا هذا ، ليس في طاقتنا — في أغلب الأحيان — أن نشاهدها مباشرة ، بل نحن مضطرون أيضاً إلى الاعتماد على رواية الآخرين لها ؛ وحسب القارىء أن يأخذ كتابين لمؤلفين معاصرين ، عن رحلة إلى قطر من الأقطار ، ليقرأ العجب العجاب من التناقض في الوصف والحكم والاستحسان والاستهجان .

(رابعاً) لأن التاريخ ليس حقل تجارب ، ولا المجتمع البشرى مخبراً أو معملاً ؛ فلا يمكننا — والحالة هذه — عمل التجارب التي هي — في الحق — أساس العلوم الحاضرة ؛ على أننا قد نستفيد بالمشترعين من أهل التهور ، وبالمتحمسين من أهل الاصلاح بما يحدثونه . وهاهما ذان : الروسيا وتركيا مخبران كبيران ، يقوم فيهما « ستالين » و « مصطفى كمال » بتجارب اجتماعية وسياسية واقتصادية من الطراز الأول من الانقلابات التي تشبه التجارب العلمية في نتيجتها .

(خامساً) لأن كل حادثة تاريخية هي فذة بحد ذاتها أو نتيجة وحدها ، فليس من المتيسر مشاهدة أمثالها في نفس الظروف والملابسات التي أحاطت بها . وعلينا أن نقبل بكل تحفظ ماجرى مجرى الأمثال من قولنا « التاريخ يعيد نفسه » ؛ فقد يصح هذا بالصورة المجملة المبهمة ، وأما عند التعمق والتدقيق بالصورة المفصلة ، فالتاريخ وحيد دهره .

(سادساً) لأن ظواهر التاريخ معقدة تعقيداً كلياً ، وليس بين المؤرخين — كما قال الاستاذ (هرنشو) — اتفاق على ما هو مهم أو ما هو تافه ، ولأن عنصر « الصدفة » — وهو ما يحدث عرضاً — كثير الوقوع .

فلهذه الأسباب وما سبقها من أن حوادث التاريخ فذة لا تتكرر ، لا يمكننا أن نصنف هذه الحوادث ، فنضعها في أبواب خاصة ، كل باب منها يشمل الحوادث المتماثلة في نوعها ؛ وهذا التصنيف أو التبويب — كما هو معلوم — هو الأساس الذي تبنى عليه القواعد الكلية الشاملة والاستنتاجات الصحيحة ، والدساتير العلمية المضبوطة ، فحيثما لا يوجد تصنيف لا يوجد استنتاج ؛ فلا جرم أن يكون التنبؤ عما سيجرى من الحوادث التاريخية ، كما يتنبأ الفلكي عن الكسوف والخسوف مثلا ، ليس في حيز الامكان .

هذا بالاجمال هو رأى القائلين بالطريقة العلمية وتعذر تطبيقها فى الشئون التاريخية. ولكن « العلم » — والحق يقال — أوسع من أن يوضع فى هذا الخلاء الضيق ، وأطلق حرية من أن يقيد بهذه السلاسل الذهبية الخلابة التى يريد الطبيعيون الخلص أن يضعوها فى عنقه ؛ ومع كل احترامنا لطرقهم الاستقرائية البديعة ، وتقديرنا للنتائج الباهرة التى تفضلوا على الناس بها ؛ فكلمة « العلم » يجوز أن تطلق أيضاً على كل مجموعة من ملاحظات صحيحة تقبل التنظيم تحت إشراف العين البصيرة النقادة من غير تعصب يحول دون رؤيتها الحقائق الواقعة . قال الاستاذ (توماس هكسلى) : « إننى أفهم بكلمة العلم جميع المعرفة التى تستند إلى التعليل والاثبات »

***

ودرس التاريخ على هذا النمط من جمع الحقائق وتنظيمها وعرضها للنقد وتصفيتها من آثار التعصب الذميم ، قد أتى بكثير من الثمرات اليانعة فى تنوير الأذهان ورفع المستوى التهذيبى ، وخولنا ، بعض الأحيان وضع الدساتير العلمية الصادقة ؛ كقولنا « متى كان الشعب مستاءً متنكراً ، واستطاع زعماؤه أن يزرعوا فى قلبه الأمل بالاصلاح العاجل ، فانه يثور فى وجه حكومته عند أول فرصة سانحة »

وقد زاد فى ترسيخ قدم « التاريخ » صلته بعلم الاجتماع وارتباطه بنتائجه ، وعلينا أن نلاحظ هنا الفرق بين هذين العلمين ؛ فالمورخ الخليق بهذا الاسم يرى تعليل الطريقة الاجتماعية التى يسير بمقتضاها المجتمع فى الماضى ، فى حين يرى الاجتماعى تعليلها فى الحاضر . ويجمع المؤرخ الحوادث التى حدثت ، ويسعى ليفسر بها مايعرض أمامه من الشئون الاجتماعية ؛ ولكنه عند جمعها يعرضها على علم الاجتماع أيضاً ، ليدركها ويحيط بكنهها ؛ فهو إذاً مضطر إلى التسلح به فى فهم الحقائق الماضية ، بيد أن هدفه فى الماضى دائماً حيث يرى كنوز المجتمع مخبأة ، وأما الاجتماعى فيرى هذه الكنوز فى الحاضر ، فلاجرم أنه يجعله قبلته ؛ ولا يهمه من الماضى إلا ما كان متعلقاً بالحوادث التى تمر أمام عينيه .

وكلما تنزه التاريخ عن حصر سعيه فى الأفراد — من أمراء ورؤساء إلى آخره — ، ولم يذكر من شأنهم إلا ما يستدل به على حالة المجتمع الذى عاشوا فيه باعتبارهم فهرستاً له ، وكلما أفاض فى وصف « التاريخ الطبيعى » للجمعية البشرية ، فوصف حكومتها ، وطريقة بنائها ، والقواعد التى تسير عليها ، والمفاسد التى تنخر عظمها ، والتعصبات التى تعمى بصرها ، والانفعالات التى تدفعها ، ثم وصف الحكومة الدينية ، وبين قوة سلطانها وعلاقتها الرسمية بالدولة ، وشرح العقائد التى تدين بها وتنشرها فى الشعب ، وتضطهد الناس من أجلها ، وكيف كانت ترسل الناس إلى أعماق السجون ، أو إلى سدد المشانق من أجل ترهات لم تحجم فى مابعد عن التبرؤ منها

ثم حلل الأوضاع الاقتصادية والمالية والصناعية والتجارية وحروب الطبقات وسيطرة رءوس الأموال، وما إلى العادات الاجتماعية التى أقرها العرف، وإلى الروابط «العائلية» التى أيدتها الشريعة فجلى غوامضها، ثم عرج على الفنون الجميلة، وهى معيار ذوق الأمة، فأعطاها حقها من الايضاح... إن المؤرخ كلما أفاض فى مثل هذه الشؤون العامة التى تسير بما يشبه النظام، كان أقرب إلى الاتساق الاستقرائى والاتزان العلمى، وأبعد عن مواقع الخطل الناشىء عن الشذوذ الفردى، والجموح الوهمى الذى لا ضابط له؛ وأما أولئك «المؤرخون» الذين وقفوا «تواريخهم» على جمع أخبار الملوك باعتبارهم ملوكا فقط، فذكروا ما كان لهم من السرارى والحظايا والأبناء والأحفاد والقصور والخيل والاسطبلات وما إلى ذلك من الأخبار التافهة فأحر بهم أن يدعوا حفاظ روايات وكتاب أقاصيص وجذاب عوام! قال المستر (هربرت سنبسر) فى فصل عقده عن التاريخ يعد آية فى الإحكام:

«إن ما يتألف منه التاريخ الخليق بهذا الاسم محذوف أكثره من المدونة الكتب المعروفة فى هذا الموضوع، وفى السنين الأخيرة فقط أخذ المؤرخون يزودوننا بمقدار صالح من الملاحظات القيمة. وكما كان الملك فى الأعصر الخالية الكل فى الكل، وكان الشعب كمية مهملة، كذلك كانت أعمال الملك تملأ فى التواريخ الصورة المتجلية، وكانت الحياة القوية من ورائها رقعة (أو رضية) قاتمة للون ليس إلا. ولم يأخذ المؤرخون فى الاشتغال بمظاهر التقدم الاجتماعى إلا فى هذا العصر، إذ أصبحت سعادة الأمم — لا سعادة الأمراء — الفكرة السائدة»

ونحن إذا ما اهتممنا بفرد من الأفراد البارزين، وأوسعنا له مجالا فى مدوناتنا الحاضرة، فانما نفعل ذلك لما لهذا الفرد من الخصائص والأعمال التى تجعل حياته عنوان العصر الذى عاش فيه، والأمة التى نشأ فى أركانها، ولكن ما أقل هؤلاء والأفراد فى جميع الأعصار والأمصار!

عبد الرحمن شهبندر

أيها المشـــــترك!

إن «المعرفة» لتفخر كل الفخر، بأنها مجلة المثقفين والعظماء، وبأن مشتركيها من خاصة العلماء والأدباء فى جميع أنحاء الشرق العربى.

لذلك يهمها أن تحافظ على سمعتهم الأدبية، من اتهامهم بعدم تقدير المشاق الصحفية، وما نبذل فى سبيل «المعرفة» من مال وجهد.

فهل أديت واجبك نحوها؟ وهل سددت اشتراكك؟ تذكر قليلا، وتفضل مشكوراً بتسديد ما عليك إن لم تكن سددته.

مارستانات مصر فى العصر الاسلامى *

بقلم الدكتور أحمد عيسى بك

من عرف من الاطباء بخدمة بيمارستان احمد بن طولون

١ — محمد بن عبدون الجيلى العذرى، رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ هـ، ودخل البصرة وإلى مدينة فسطاط مصر، ودَبَّر مارستانها ومهر بالطب ورجع إلى الأندلس سنة ٣٦٠ هـ.
وخدم بالطب المستنصر بالله والمؤيد بالله، وكان قبل أن يتطبب مؤدباً بالحساب والهندسة، قال القاضى صاعد[1] «وأخبرنى أبو عثمان سعيد بن البغونش الطليطلى: أنه لم يلق فى قرطبة أيام طلبه من يلحق بمحمد بن عبدون الجيلى فى صناعة الطب وله من الكتب كتاب التكسير».

٢ — سعيد[2] بن نوفل طبيب نصرانى كان فى خدمة أحمد بن طولون.

٣ — شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى، مدرس الاطباء بجامع ابن طولون، كان فاضلا له نظم مات فى شوال سنة ٧٧٦هـ.

٤ — المارستان الاسفل[3] (بالفسطاط) أو بيمارستان كافور الاخشيد

بناه الخازن الذى عمر المقياس بالاهراء، عمره وعمر الميضأتين المرسومة إحداهما لتغسيل الموتى والسقاية، والحمامين المعروفين بحمامى بوران، وأجرى الماء الى الحمامين والميضأة من البئر التى فى الصاغة، وذلك فى سنة ٣٤٦ هـ. قال القضاعى: «إن الاخشيد أمير مصر حبس جميع ما بناه من قيسارية ودور وحوانيت على المارستان الأسفل والميضأتين والسقايتين وأكفان الموتى»، وذكر شيوخ المصريين المؤرخين أن هذا المارستان كان فيه من الأزيار الصينى الكبار والبرانى والقدور النحاس والهواوين والطشوت وغير ذلك مايساوى ثلاثة آلاف دينار، ونقل اليه من المارستان الأعلى الذى بناه ابن طولون أضعاف ذلك، وليس به الآن (قول ابن دقماق) شراب ولا دواء يلتمسه فقير، وإنما يطبخ فيه فى السنة (كلمة غير مفهومة فى الأصل) يسير، أكثر الضعفاء لايصلون اليه، ثم بطل ذلك. وقال تقى الدين المقريزى: هذا المارستان بناه كافور الاخشيد وهو قائم بتدبير دولة الأمير أبى القاسم أنوجور بن محمد الأخشيد بمدينة مصر فى سنة ست وأربعين وثلاثمائة (٩٥٧م).

* راجع «المعرفة» عدد يناير سنة ١٩٣٣ وما قبله.

(١) طبقات الامم ص ٨١ طبع بيروت (٢) حسن المحاضرة للسيوطى ص ٣١١ ج ١ (٣) الانتصار ص ٩٩ ج ٣ و ٤

٥ - بيمارستان القشاشين

قال القاضى محيى الدين عبد الظاهر [١]: بلغنى أن البيمارستان كان أولا بالقشاشين، يعنى المكان المعروف الآن بالخراطين، على القرب من الجامع الأزهر. وهنالك كانت دار الضرب بناها مأمون ابن البطائحى وزير الآمر بأحكام الله قبالة البيمارستان. قال تقى الدين المقريزى [٢] فى كلامه عن درب خربة صالح: هذا الدرب على يسرة من سلك من أول الخراطين إلى الجامع الأزهر. كان موضعه فى القديم مارستانا ثم صار مساكن وعرف بخربة صالح وفيه سوق الصنادقيين. وقال عن سوق الصنادقيين: إنه تجاه المدرسة السيوفية، كان موضعه القديم من جملة المارستان.

٦ - بيمارستان السقطيين

كان هذا المارستان فى سوق السقطيين خارج باب زويلة بجوار دار التفاح، قال ابن أبى أصيبعة [٣]: وكان أبو الحجاج يكحل فى البيمارستان بالقاهرة، غير الموضع الذى صار حينئذ بالقاهرة بيمارستانا، وهو من جملة القصر، أى غير بيمارستان صلاح الدين يوسف، وكان البيمارستان فى ذلك الوقت فى السقطيين أسفل القاهرة.

وممن خدم فى هذا المارستان شهاب الدين أبو الحجاج يوسف الكحال، كان يكحل فى البيمارستان بالقاهرة، وكان البيمارستان فى ذلك الوقت فى السقطيين أسفل القاهرة. وذلك يطابق زمن ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب للديار المصرية، أى قريباً من سنة ٥٦٧ هـ ١١٧١ م.

٧ - البيمارستان الناصرى أو بيمارستان صلاح الدين

لما ملك [٤] السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية (٥٦٧ هـ — ١١٧١ م) واستولى على القصر [٥]، كان فى القصر قاعة بناها العزيز بن المعز فى سنة ٣٨٤ هـ ٩٩٤ م، فجعلها السلطان صلاح الدين بيمارستانا، وهو البيمارستان العتيق الذى داخل القصر، وهو باق على هيئته إلى الآن [٦]، أى إلى زمن المؤلف، ويقال إن فيها طلسما لا يدخلها نمل، وإن ذلك هو السبب الموجب لجعلها بيمارستانا. قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر «ولقد سألت المباشرين بالبيمارستان المذكور عن ذلك فى سنة ٦٥٧ هـ فقالوا صحيح»

قال أبو السرور البكرى [٧] عند كلامه على المارستان: قصر أولاد الشيخ من جملة القصر

(١) صبح الاعشى ص ٣٦٩ ج ٣ (٢) المقريزى ص ٤٠٠ ج ٢ (٣) عيون الانباء ص ٢٤٧ ج ٢
(٤) صبح الاعشى ص ٣٦٩ ج ٣ (٥) هو قصر الخلفاء الفاطميين، وسيأتى الكلام عليه بعد (٦) المتوفى أبو العباس القلقشندى سنة ٨٢١ هـ ١٤١٨ م (٧) كتاب قطف الازهار فى الخطط والآثار: مخطوط بدار الكتب

الكبير، وكان قاعة فسكنها الوزير الصاحب معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، فعرف به المارستان العتيق. قال القاضي الفاضل في متجددات سنة ٥٧٧ هـ ١١٨١ م: أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب بفتح مارستان للمرضى والضعفاء فاختير مكانا بالقصر، وأفرد برسمه من جملة الرباع الديوانية مشاهرة مبلغها مائة دينار وغلات جهلتها، واستخدم له أطباء وكحالين وجرائحيين وشارفا وعاملا وخداماً، ووجد الناس به رفقاً وبه نفعاً. وقال ابن عبد الظاهر: كان البيمارستان قاعة بناها العزيز بالله سنة ٣٨٤ هـ ٩٩٤ م، وقيل إن القرآن مكتوب على حيطانها، ومن خواصها أنه لا يدخلها نمل لطلسم بها، ولما قيل ذلك لصلاح الدين يوسف بن أيوب، قال هذا يصلح أن يكون بيمارستانا، وسألت مباشريه عن ذلك فقالوا صحيح.

قال أبو الحسين محمد بن جبير [١] الرحالة الأندلسي الكبير، عند زيارته لمدينة القاهرة سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢ م، وذلك في زمن السلطان صلاح الدين: « ومما شاهدناه من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً، أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً، وعين قيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى، وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم، وبازاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن أيضاً من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت مجالس للمجانين، ولهم أيضا من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد». وقال على مبارك باشا [٢]: لما تولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب السلطنة، وفرق أماكن قصر الخلافة على أمرائه ليسكنوا فيها، جعل موضعاً منه مارستانا وهو المارستان المشهور بالعتيق، وجعل بابه من حارة ملوخية، وهي حارة قائد القواد قديماً، وموضعه الآن الدار المعروفة بدار غمرى الحصرى مع ما جاورهما من الدور، كما وجدنا ذلك في حجج الأملاك، وهو بآخر الحارة من جهة بابها الصغير الذى هو من جهة قصر الشوك؛ وأصل هذا الباب أحد أبواب القصر الكبير الشرقي، وكان يسمى باب قصر الشوك، ويدخل منه إلى البيمارستان العتيق.»

أحمد عيسى

(١) الرحلة ص ٥١ طبع ليدن (٢) الخطط الجديدة ص ٨١ ج ٢

٣ - مملكة الحيرة فى أيامها الاخيرة *

بقلم الاستاذ يوسف بك غنيمة
وزير مالية العراق الأسبق

وفى زوال دولة المناذرة قال ابن بقيلة : (١)

أبعد المنذرين أرى سواماً ... تُروَّح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى ... قلوصاً بين مرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبى قبيس ... كجرب المعز فى اليوم المطير
تقسمنا القبائل بعد معد ... علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا حريم ... فنحن كضرة الضرع الفخور
نؤدى الخرج بعد خراج كسرى ... وخرج من قُريظة والنّضير
كذاك الدهر دولته سجال ... فيوم من مساءة أو سدور

وقال القعقاع بن عمرو فى أيام فتح الحيرة : (٢)

سقى اللهُ قتْلى بالفرات مقيمة ... وأخرى بأثباج النجاف الكوانف
فنحن وطئنا بالكواظم هرمزاً ... وبالثنى قرنى قارن بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعَتْ ... على «الحيرة» الروحاء إحدى المصارف
حططْناهم منها وقد كاد عرشهم ... يميل به فعل الجبان المخالف
رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا ... غبوق المنايا حول تلك المحارف
صبيحة قالوا نحن قوم تنزلوا ... إلى الريف من أرض العريب المقانف

كان الدهاقين يتربصون بخالد ، وينظرون ما يصنع أهل الحيرة ، فلما استقام مابين أهل الحيرة وبين خالد واستقاموا له ، أتته دهاقين الملطاطين وصالحوه . (٣)

واتخذ خالد بن الوليد الحيرة منزله سنة ، وهو يصعد ويصوب قبل خروجه إلى الشام (٤) ؛ وكان أبو بكر قد عهد إلى خالد أن يأتى العراق من أسفل منها ، وإلى عياض أن يأتيه من فوقها ، وأيهما سبق إلى الحيرة ، فهو أمير على الحيرة ؛ وكأنى بالفاتحين المسلمين

---

* راجع « المعرفة » عددى ديسمبر ١٩٣٢ ويناير سنة ١٩٣٣

(١) الطبرى ٤ : ١٣ (٢) الطبرى ٤ : ١٥ (٣) كذلك ص ١٧ (٤) كذلك ص ١٨

قد اتخذوا الحيرة قاعدة حربية فى فتح العراق ؛ وبعد فتح الحيرة ، فتح المسلمون الأنبار وعين التمر ؛ وبعد سفر خالد إلى الشام ، أقام المثنى بن حارث الشيبانى بالحيرة مع عمرو بن حزم الأنصارى ، ووضع المسلحة ، وأذكى العيون ؛ واستقام أمر فارس بعد مسير خالد من الحيرة بقليل ، وذلك سنة ثلاث عشرة ، على شهر يزان بن اردشير بن شهر يارسابور ، فوجه الى المثنى جنداً عظيماً عليهم هرمز جاذويه ، فخرج المثنى من الحيرة نحوه ، وكانت الغلبة للعرب ؛ وعلم المثنى موقفه وأن لا قدرة له على الدأب فى الجهاد بلا نجدة ؛ فذهب إلى المدينة وبين موقفه إلى أبى بكر - وكان على فراش الموت - فطلب أبو بكر إلى عمر بن الخطاب أن يبعث نجدة إلى بلاد فارس (١).

لما ولى عمر بن الخطاب لم يكن همه إلا العراق ؛ فعقد لأبى عبيد بن مسعود على جيش وأمره بالمسير إلى العراق ، ومعه المثنى بن حارثة ، وعمرو بن حزم ، وسليط بن قيس ، فساروا حتى نزلوا الثعلبية ، وعقد أبو عبيد الجراح جسراً ، وعبر عن معه على كره من مشورة سليط والمثنى ؛ وزحف عليهم العجم ، فرشقوهم بالنشاب حتى كثرت فى المسلمين الجراحات ، وقتل فى هذه الموقعة أبو عبيد (٢) ، فرجع الباقون مارين نحو الجسر ، والمثنى يقاتل من ورائهم لجميعهم حتى عبروا جميعاً ، وعبر المثنى فى آخرهم ، وقطعوا الجسر ، وكتب إلى عمر بما جرى من المحاربة ، وكتب إليه عمر أن يقيم إلى أن يأتيه المدد ، وكانت هذه الموقعة فى رمضان سنة ١٣ هجرية ؛ ثم أرسل عمر بن الخطاب جيشاً وولى عليه جرير بن عبد الله البجلى ، فسار حتى وافى الثعلبية ، ثم سار حتى نزل دير هند ، فبلغ ذلك أزرميدخت ملكة العجم ، فأمرت أن ينتدب من مقاتليها اثنا عشر ألف فارس ، فانتدبوا وولت عليهم مهران بن مهرويه عظيم المرازبة ، فسار بالجيش حتى وافى الحيرة ، فتقاتل الفريقان وانجلت المعركة عن قتل مهران وانهزام العجم لاحقين بالمدائن ؛ وكانت هذه الوقعة سبب خلع أزرميدخت وتمليك غلام اسمه يزدجرد من عقب كسرى بن هرمز ؛ فاستجاش يزدجرد جنوده من آفاق مملكته (٣) وأشغل جيش المسلمين . فكتب المسلمون إلى عمر بن الخطاب بما ينتظرون من أهل السواد ، فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد ، من كان له عهد ومن لم يكن له عهد ، وخرج المسلمون من بين العجم . وأرسل عمر بن الخطاب جيشاً إلى العراق ، فى سنة ١٤ بقيادة سعد بن أبى وقاص ، ومات المثنى قبل وصول سعد ، واستخلفه بشير بن الخصاصية ؛ (٤) وكان الآزمرد بن الأزاذبة دعا قابوس بن قابوس بن المنذر وبعثه إلى

(١) ابن الاثير ٢ : ١٧٤ . والاخبار الطوال ١١٢ (٢) ابن العبرى ١٧١ (٣) الطبرى ٤ : ٨١ (٤) ابن الاثير ٢ : ١٨٨ و ١٩٠ .

القادسية ، وقال له ادع العرب فأنت على بن أجابك ، وكن كما كان أباؤك ، فنزل القادسية وكاتب بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان يكاتبهم مقاربة ووعيداً ، وأشغل جيش المسلمين ، فجاءه المعنى ابن حارثة الشيبانى - أخو المثنى - فأنامه ومن معه . (١)

وقتل فى هذه السنة عبد الله بن سنان ، والنعمان بن قبيصة الطائى - وهو ابن عم قبيصة ابن إياس الطائى صاحب الحيرة - وكان النعمان على رابطة الفرس فى قصر ابن مقاتل (٢) ، وأغار فى هذه المطاوى العرب على الحيرة ، فلاقوا قرب الصنين زفاف أخت أزاد مرد بن آزاذبة مرزبان الحيرة ، إلى صاحب الصنين ، فنهبوهم ونهبوا بنت أزاذبة وغيرها من النساء . (٣)

وقصارى الكلام فقد ثبتت أقدام المسلمين فى الحيرة والكوفة ، وفي سواد العراق بانتصارهم على الفرس فى واقعة القادسية .

وأجلى عمر (رض) من دومة جندل اكيدر الملك السكونى الكندى - فيمن أجلى من مخالفى دين الاسلام - إلى الحيرة ، فنزل فى موضع منها ، قرب عين التمر ، وبنى به منازل وسماها دومة ، وقيل دوماء باسم حصنه بوادي القرى ، وكان قائماً يعرف فى زمن ياقوت الحموى إلا أنه خراب. (٤)

وروى الواقدى (٥) عن فتح الخورنق ، وقتل النعمان المغرور بن المنذر (٦) وفتح الحيرة والقادسية على يد سعد بن أبي وقاص ما ملخصه : قدم العراق سعد بن أبى وقاص ، فى ثلاثين ألف فارس من بجيلة والنخع وشيبان وربيعة وأخلاط العرب ، وما من قدم العراق منهم إلا بأهله وولده ، فارتحل من الرحبة إلى الحيرة البيضاء ، وكان هناك جيش النعمان بن المنذر ، وقد ضرب خيامه والسرادقات إلى ظاهرها ، وقد أضاف إليه جميع العرب ، وهم من العراق فى ثمانين ألفاً ، وقد أفاض عليهم النعمان النعم والخلع ووعدهم من الملك كسرى بكل جميل ، وقام يخطب فيهم ، فبينما هو كذلك إذ جاء عمه إلياس (٧) وهو صاحب الحرس ، وأخبره بقدوم رسول قائد جيش المسلمين ، وكان هذا الرسول سعد بن أبى عبيد القارى ، فعرض الرسول إحدى الثلاث : الاسلام ، أو الجزية ، أو الحرب . وبعد المفاوضة أجابه النعمان : ليس بيننا إلا السيف ، فأخبر الرسول سعد بن أبى وقاص بالجواب ، ثم تلاقت جيوش الفريقين واشتد القتال بين جيش سعد وبين جيش النعمان بن المنذر فأصيب

---

(١) الطبرى ٤ : ٨٨ (٢) ابن الاثير ٢ : ١٩ (٣) الطبرى ٤ : ٩١ (٤) معجم البلدان فى المادة «دومة الجندل»

(٥) فتوح الشام ٢ : ١٢٠ وما بعدها (٦) لا نظن ان النعمان بن المنذر كان فى الحيرة فى هذه الواقعة لانه قتل قبل هذه الواقعة على رواية المؤرخين ، ومن المحتمل أن النعمان بن قبيصة الطائى هو القتيل فى هذه المعركة كما مر بنا نقلا عن الطبري (٧) هكذا ورد هذا الاسم وربما هو اياس.

النعمان بسنان وتجندل ، ولما رآه جنود الحيرة ولوا الإدبار يريدون القادسية نحو جيش الفرس وفيه رستم بن اسفنديار ، واحتوى سعد بن أبى وقاص على قصر الخورنق والسدير ، وترك جميع ما أخذه فى الحيرة .

ولما رأى جيش الفرس فلول جيش النعمان ملك العرب ، واستخبروا عن أخذ الخورنق والسدير والحيرة تبلبلوا ، فوقف رستم بينهم خطيباً يشجعهم على القتال ، وأقبل عليه فى هذه التضاعيف أبو موسى الأشعرى ، موفداً من سعد إلى الفرس ، فعرض عليهم الشهادة أو الجزية أو الحرب ، وهرب فى ذلك الليل من عساكر الفرس إلى المسلمين ، فطلبهم الفرس فرفض العرب إرجاعهم ، ثم تحاربت جيوش المسلمين والفرس طيلة النهار ، ومنى جيش الفرس بالخسائر والاندحار ، وفى وقعة أعقبت ذلك اليوم قتل رستم وانتهت هذه الحرب ، بانتصار المسلمين ، وفتحهم القادسية ، وهرب الفرس إلى المدائن مولين الإدبار ، واستولى الفاتحون على أموالهم .

ولما بعث عمر بن الخطاب إلى سعد بأن يمضى إلى المدائن ، أمره أن يخلف النساء والأولاد فى الحيرة ، وعندهم من الجند جماعة ، وأن يجعل لهم شركة فى كل مغنم [١] .

ويظهر مما ذكرنا أن ليس لأهل السواد عهد إلا الحيرة وأليس وبانقيا ، فلذلك يقال : لا يصح بيع أرض السواد دون الجبل لأنها فىء للمسلمين عامة إلا أراضى بنى صلوبا وأرض الحيرة . [٢]

٧ — بقايا اللخميين وحكمهم فى الاسلام

لم ينحصر مجد اللخميين وملكهم بالحيرة وما والاها من ديار العراق أو ما جاورها من البلاد العربية فى الجاهلية كما بينا فى تاريخهم ، ولم يندثر عزهم بزوال دولتهم عند الفتح الاسلامى ، بل نرى منهم أمراء فى الأندلس ، وفى الاسلام ؛ قال النويرى [٣] « وقد كان للخميين ملك بالحيرة من العراق ، وكان لبقاياهم ملك بأشبيلية من الأندلس ؛ وهى دولة بنى العباد ، وأول من ملك منهم القاضى محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد ، وقد ذكر القضاعى فى خطط مصر أنهم حضروا فتح مصر ، واختلطوا بهم ، وممن خالطهم جذام ، وقال الهمدانى : وبصعيد مصر قوم منهم مساكنهم بالبر الشرقى » .

وأورد ابن خلكان [٤] نسب المعتمد صاحب قرطبة وأشبيلية وما والاها من جزيرة الأندلس كما يأتى : هو المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله أبى عمر

---

(١) الواقدى : فتوح الشام ٢ : ١٢٧ . ننبه هنا الى أن روايات المحدثين عن فتح العراق تتباين فى تفصيلها الوقائع باختلاف الرواة ، وقد انتقينا منها ما اعتقدناه أقرب من غير الى الحقيقة (٢) معجم البلدان : المادة « سواد » (٣) نهاية الارب فى معرفة انساب العرب ٣٣٢ (٤) وفيات الاعيان ٢ : ٤٠٩ وما بعدها

وعباد بن الظافر ، المؤيد بالله أبى القاسم محمد قاضى أشبيلية بن أبى الوليد اسماعيل بن قريش ابن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم اللخمى ، من ولد النعمان ابن المنذر ، آخر ملوك الحيرة . وفى المعتمد هذا وفى أبيه يقول أحد الشعراء :

من بنى المنذرين وهو انتساب زاد فى فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالى والمعالى قليلة الأولاد

وكان بدء أمرهم فى بلاد الأندلس أن نعيماً وابنه عطافاً أول من دخل إليها من بلاد المشرق ؛ وهما من أهل العريش ، القرية القديمة الفاصلة بين الشام والديار المصرية ، فى أول الرمل من جهة الشام ، وأقاما فيها مستوطنين بقرية قرب تومين من إقليم طشانة ، من أرض أشبيلية . وامتد لعطاف عمود النسب من الولد ، إلى الظافر محمد بن اسماعيل القاضى ، فهو أول من نبغ منهم فى تلك البلاد وتقدم بأشبيلية إلى أن ولى القضاء بها ، فأحسن السياسة فرمقته القلوب ، وولاه الناس عليهم عوضاً عن يحيى بن على بن محمود الحسنى المعروف بالمستعلى فى سنة ٤١٤ هجرية ، وعلى رواية أخرى سنة ٤٢٤ ؛ ولما مات محمد القاضى سنة ٤٣٣ هجرية ، عقبه ابنه عباد ، ومات عباد سنة ٤٦١ ، وقام بالمملكة بعده ابنه المعتمد على الله أبو القاسم ، وكان المعتمد هذا يدفع الضريبة للادفونش . وحارب أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ــ صاحب مراكش ــ المعتمد هذا سنة ٤٨٣ هجرية ، وانتصر عليه ، وقتل المأمون بن المعتمد ، الذى كان ينوب عن أبيه فى قرطبة ، وابنه الآخر نائبه فى رنده . وأسر صاحب مراكش المعتمد وقيده وجعله مع أهله فى سفينة ، فتألم المعتمد من قيوده وقال :

تبدلت من ظل عز البنود بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدى سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
وقد صار ذاك وذا أدهماً يعض بساقى عض الأسود

وقال ابن لبانة قصيدة فى نكبة المعتمد منها :

تبكى السماء بدمع رائح غادى على البهاليل من أبناء عباد

ومن بقايا اللخميين الأمير ظهير الدين الذى أقامه السلطان نور الدين ــ ملك مصر والشام أميراً على سفح لبنان سنة ٥٥٦ هجرية ــ وفوضه على القنيطرة وبروج صيدا والدامور ، وأمده بالمال والسلاح لمحاربة الأفرنج . ويذكر أن الأمير ظهير الدين هذا من أعقاب أحد أولاد النعمان بن المنذر ، الذى سار بعد قتل أبيه إلى لبنان بقبائل من العرب فثبتت الامارة لأعقابه ؛ ومن تلك السلالة الأمير بدر الدين محمد المتوفى سنة ٧٩٨ هجرية .

هذا آخر ما نعرفه عن سيادة اللخميين وسلطانهم فى مختلف الأدوار ، ومتباين الأقطار ؛ فسبحان من يهب الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ولله ملك السموات والأرض ؟

[بغداد] يوسف غنيمة

أسلوب التفكير في الأزهر

ومنزلته من تطور الفكر البشرى

بقلم الاستاذ أحمد توفيق عياد

المدرس بالليسيه فرانسيه

استعرضنا فى المقالين السابقين(١) أهم المدارس التى نشأت فى الغرب ، وكان لها أثر أيما أثر فى تطور الفكر الأوروبى ؛ وانتهينا من الكلام عن الأفلاطونية الحديثة وأثرها فى العرب بوجه عام ، وأثرها فى التصوف الاسلامى بوجه خاص ؛ وبعد الأفلاطونية الحديثة لم يظهر فى أوربا تفكير مجدد ، وتولاها على العموم عصر مظلم ليس فيه مجال للبحث والتفكير العميق ، إلى أن أنشأ (شرلمان) مدارس تتابع الرجوع إلى الفلسفة اليونانية ؛ ولهذه المدارس تنتسب تسمية العصر بالمدرسى . وبينا كانت أوربا فى غيابة هذا الظلام الدامس إبان القرون الوسطى ، كانت العرب فى أرقى عصر من عصورها الذهبية ؛ فبعد اختلاطهم بالأمم المختلفة ذات الحضارة والنظم السياسية والادارية فى الشام والعراق ومصر ـ ولاسيما بعد حلولهم فى الأندلس واستقرارهم فيها ـ أخذوا فى الاهتمام والعناية بالعلوم الفلسفية وسائر العلوم : من طب ، وفلك ، ورياضة ، وتاريخ ، وأدب ؛ ونقلوا أكثر الكتب المعروفة لديهم فيها ؛ ولم يقف عملهم عند حد النقل ، بل بدأ العقل العربى يكمل تطور الفكر الانسانى ؛ وامتزج الدين بالفلسفة كثيراً ، وظهر كثير من الأفذاذ الذين على عقولهم تنقل هذا التطور « كالكندى » وهو أسبق فلاسفة المسلمين ، وهو عربى الأصل دون سواه من فلاسفة العرب ، ويليه « أبو نصر الفارابى » و « ابن سينا » و « الغزالى » وهو إمام التصوف . وظهر منهم فى الأندلس « المجريطى » و « ابن باجة » و « ابن رشد » وغيرهم ؛ وقد ألفوا المؤلفات الضافية فى فروع الفلسفة والعلوم ، مما اتخذه الغربيون أساساً لفلسفتهم فى أوائل نهضتهم ، وظل العرب كذلك قروناً فى نهضتهم هذه ، وانتقل إليهم علم اليونان وعلم الفرس وغيرهم ، حتى أتى عصر النهضة وإحياء العلوم ، فاستمد الغربيون علمهم وفلسفتهم من العرب الذين أخذوا من ذلك الوقت — الذى بدأ الغرب فيه ينتعش —

---

(١) « المعرفة » فى نوفمبر وديسمبر ١٩٣٢

فى التأخر والاضمحلال ، وصار شأن التفكير عند الأمة الاسلامية - فى عصور الاضمحلال هذه ، منذ أواخر القرن الثامن الهجرى إلى قبيل عصرنا الحاضر - شأن التفكير عند الغربيين طوال القرون الوسطى ، وأصبح منذ ذلك الوقت يمتاز الأزهر وغيره من المدارس الاسلامية بما كانت تمتاز به القرون الوسطى عند الغربيين من مميزات ؛ فكان التعليم فى الغالب دينياً خاضعاً كل الخضوع للآراء والمعتقدات الدينية ، وكان التعليم لفظياً كله وليس للعقل فيه نصيب ، لأن التلميذ كان مضطراً إلى قبول ما يعرض عليه كأنه قضية مسلم بها ؛ فهو تعليم تحكمى لامجال فيه للنقد وإعمال الفكر ؛ « وعود الناس الميل إلى الأمور المجردة المعنوية ، والاستدلال الشكلى العقيم من مقدمات مفروض عدم التفكير فيها وتمحيصها ؛ والتفكير كان استنباطياً كله أساسه القياس المنطقى ، والاعتماد على الحفظ والاستظهار ، لا على الملاحظة والمشاهدة ؛ وأوضح خصائص هذا العصر عند الغربيين إخضاع الفلسفة للاهوت ولم يكن الدين والفلسفة طريقين يوصلان إلى الحق ؛ فالفلسفة هى الدين والدين هو الفلسفة ؛ وكانت وظائف المشتغلين بالفلسفة هى الشرح والتعليق والتعليل للفلسفة القديمة أو لآراء الدين ، ولم تكن هناك حرية فى البحث لقوة السلطة الدينية التى عملت على تحديد سلطة العقل بحدود الدين ، فما أقره الدين لا يفكر فيه العقل أو يسلم به ؛ وكل هذه الخصائص ، هى بعينها خصائص الفلسفة الاسلامية ؛ فانه لما انحطت درجة الاشتغال بالعلوم الاسلامية وضعف شأنها ، وكان العلماء المتقدمون قد استوفوا الكلام فيها بمؤلفاتهم ومصنفاتهم المتعددة ، لم يجد العلماء المتأخرون لاظهار فضلهم فى التصنيف وانتشار ذكرهم بالتأليف ، إلا أن يعمدوا إلى مابين أيديهم من المؤلفات والمصنفات ، فوضعوا عليها الشروح والتفاسير ؛ وجاء من بعدهم طبقة من أهل العلم دون طبقتهم فحذوا حذوهم واقتصرت همتهم على شرح ماوضعوه من تلك الشروح وهى الحواشى ، ثم جاء من بعدهم كذلك من اشتغل بوضع الشروح على تلك وهى التقارير ، ثم غطى كل ذلك متون الكتب ، وتضاءل اللباب تحت القشور ، واستحكم التعقيد بذلك وتغلب الابهام ، فوقعت الأذهان فى ارتباك ، والعقول فى تشويش ، وتعذر التقاط الفوائد على الطلاب من وراء الاشتغال بها ؛ وساءت بذلك حالة التعليم ، وضاعت الأعمار والأوقات بغير طائل » . (١)

وكانت كل أبحاثهم دائرة حول الأمور الميتافيزيقية دون أن يكون لهم إلمام بالشئون الطبيعية ، وكانوا بمعزل تام عن الحياة الواقعية وما يجرى فيها ، وكانت حقائقهم شكلية ؛ أما النتائج العلمية التى يصلون إليها بعد التجربة والبحث فلم يكونوا يعرفونها ؛ وكان تفكيرهم

(١) رسالة بيرم عن الأزهر ص ٤٥

محصوراً فى دائرة واحدة ، يلف حولها ولا يتعداها ؛ وكان مجهودهم الفكرى منصرفاً إلى مناقشات لفظية ، لا تؤدى إلى نتيجة عملية لها اتصال بالحياة أو بالعالم الخارجى ؛ ويتناقشون فى الألفاظ والتعاريف مناقشة طويلة من غير جدوى ، وطريقتهم المتبعة هى الطريقة الحوارية بالسؤال والجواب ، لا لأجل التعليم الصحيح والتربية العقلية ، وإنما لمجرد التلقين والاستظهار ؛ « ومن حفظ المتون فقد حاز الفنون » .

وكان القياس المنطقى الآلة الكبرى فى المحاجة والجدال ، مقدماته المعتقدات الدينية الاستبدادية ؛ ومجال تفكيرهم لم يكن مجال خلق وابتكار ، ولكنه تفكير فى دائرة محدودة ؛ وتفكير أشبه ما يكون بالشعوذة العقلية ، فالفلسفة والآداب لم تكن سوى وسيلة لخدمة المعتقدات الدينية السائدة ؛ وكان الاهتمام منصرفاً إلى الجدل نفسه لا إلى النتيجة التى قد تؤدى إليها المقدمات ؛ فالغاية هى الاقناع وإلزام الخصم الحجة ، لا الوصول إلى الحقيقة .

هذه هى الحالة العقلية التى كان يشترك الشرق فيها فى عصور اضمحلاله — وما زلنا نئن تحت وطأتها — مع الغرب فى عصر القرون الوسطى . ولقد جدت عوامل كثيرة فى الغرب حملتهم على الخلاص من هذا الجمود العقلى ، وانتهجوا لذلك سبيلا لابد أن نسير وراءه إذا أردنا أن نتخلص من هذه العبودية الفكرية التى نرتطم فيها ؛ ووسيلة النجاة تتلخص فى شىء واحد ، هو تغيير أسلوب التفكير فى الأزهر ، وتكوينه التكوين العلمى الحديث ، وسلوكه طريق البحث العلمى الحديث فى تفكيره ؛ وهذا ما وصل إليه الغربيون بعد جهاد طويل دام قروناً ، ضمن لهم التوفيق فى النهاية وحرية الفكر ، وسداد الرأى .

فاذا استطاع الفكر الأزهرى ألا يثق فى شىء من غير اختبار على ضوء المنطق الصحيح ، وألا يتقبل حقيقة من الحقائق دون أن يزنها بميزان المنطق ، وإذا استطاع أن يحتاط من الأغلاط والأوهام التى يتعرض لها الفكر بطبيعته بسبب الوراثة ، أو بسبب التكوين الطبيعى للفرد ، أو بسبب اللغة وتصلبها ، وإذا استطاع أن يكون جريئاً يهجم على الآراء والعقائد يبحث فيها ويهضمها ويتمثلها دون أن يتردد فى ذلك من غير ما مبرر ، وإذا استطاع أن يشك فى كل شىء حتى فى أمس الأمور بعقائده وآرائه ونزعاته الموروثة ، ليصل من وراء هذا الشك إلى يقين ثابت يدعمه المنطق الصحيح ، وإيمان وطيد لا يأتيه الباطل ، دون أن يخاف الزيغ والزلل فى شجاعته هذه ، وإذا استطاع أن ينهج هذه السبيل فى دراسته للأشياء ، وفى تمحيصه للحقائق ، وذلك بجمع الوقائع المتعلقة بالموضوع بما يرتبها ويبوبها ، ثم يتناولها واقعة واقعة بالبحث والتمحيص والدحض ، ثم يستنتج منها ما يهديه إليه عقله وتفكيره ... إذا استطاع الفكر الأزهرى هذا ، انتقل الأزهر من صبغته القديمة التى تجعله إلى القرون الوسطى أقرب

[البقية على الصفحة ١٢١٦]

ماذا ينبغي أن يقرأ طفلك ؟

بقلم المربية الكبيرة الآنسة زينب الحكيم

خريجة جامعة لندن

موضوعنا هذا من أهم ما يجب أن نشغل عقولنا بالتفكير فيه ، نظراً لأهميته بالنسبة لكل مخلوق إنساني بوجه عام ، وبالنسبة لما نلحظه من نقص ظاهر فى حال أطفالنا وطلاب العلم فى بلادنا ، وبمدارسنا المصرية بوجه خاص .

وربما يسهل علينا البحث إذا نحن حللنا عناصر الموضوع بالاختصار ، بحيث يظهر أمامنا المبدأ الذى يجب أن نبتدىء منه ، والغاية التى ننتهى إليها .

والآن يمكننا أن نقول : إن أداة القراءة هى اللغة التى ميزت الانسان عن الحيوان الأعجم ، واعتبرت مبدأ للذكاء الانسانى .

وقد ابتدأ الانسان تأليفها برموز تعبر عما يجول بخاطره ، وتدل على ما يحيط به من أشياء كثيرة ؛ لذلك نجد أن الطفل عائش فى وسط حلقتين هما الماضى والحاضر ، يبنى عليهما حلقة ثالثة هى المستقبل ، وهو يبنى هذا المستقبل بتفكيره الخاص وتجاربه .

وحيث إن اللغة أو « أداة التعبير » أو الشىء الذى يقرأ يرتبط بما يأتى :

١ — بما يحيط بنا من أشياء .

٢ — بحركاتنا .

٣ — يتكون منه تراكيب وجمل .

فاللغة تشبه الأمة ؛ فكما أن للأمة سياسة ونظماً ، كذلك الحال مع اللغة ؛ فلها قواعد ، وأسلوب ، لا يجيدها الانسان إلا بالقراءة .

فكيف نساعد الطفل على القراءة وماذا ينبغى أن يقرأ ؟

قبل الجواب عن هذا السؤال نقول :

إن علم النفس حاول أن يقسم أطوار نمو الطفل فأظهر أن كل طور يختلف عن الآخر .

ونحن نعرف أن القراءة تتطلب : ١ — حصر فكر - ٢ - تشوقاً - ٣ - انتباهاً - ٤ غرضاً .

وقد أثبت علم النفس أيضاً أن الأربع حالات السابقة الذكر التى تتطلبها القراءة ؛ بل تعمل على إنمائها فى الطفل ، توجد فى آخر طور الطفولة (من ٧ - ٩) أو إلى ١٢ فى الحالات الشاذة .

ولكى نصل إلى الأربع ميزات المتقدمة يجب أن نوضح حاجتنا الماسة إلى القراءة ، والغرض الذى نفعلها من أجله . فمثلا نحن فى حاجة إلى قراءة الخطابات ، والتقارير ، والمذكرات وأخبار العالم ؛ كما أن القراءة تكسب ملكة الاقتدار على الخطابة والتحرير ، وفوق ذلك فانها أكبر واسطة يصل بها الانسان إلى أغزر ينابيع العلم ؛ هذا عدا فوائدها فى إنماء قوى الطفل العقلية و تكوين شخصيته وأفكاره .

إذن : فماذا ينبغى أن يقرأ الطفل وهو دون السابعة ؟

١ يكتفى بمطالبته بقراءة ما يكتب من كلمات بسيطة أو جمل . والغرض الأساسى من القراءة فى هذه المرحلة هو مساعدة الطفل على تعلم النطق الصحيح أثناء القراءة ، كذلك المواقف وغيرها ، بحيث يستطيع فهم وقراءة كتابات الغير فى المستقبل .

٢ ـ أن تحكى له الأم أو المربية قصصاً بسيطة جداً أو أغانى قصيرة سهلة تتمشى مع عقليته وبيئته ، وأن تحبب إليه التقرب من باقى أطفال بلده ، وأطفال الأجناس الأخرى . مثل حكاية (علبة الشكلاتة) وهى :

« أحضر والد إلى ولديه : فريد ومنير ، صندوقين من (الشكلاتة) عند عودته إلى المنزل فى المساء ، فشكراه ـ شأن الأطفال المؤدبين ـ وأخذ كل منهما صندوقه واحتفظ به ؛ وفى صبيحة اليوم الثانى أخرج فريد صندوقه وطلب إلى والدته ووالده وجميع أولاد عمه الحاضرين أن يشاركوه فى أكله ، فشكر له الجميع صنيعه وأحبوه لكرمه وحبه للغير ، فأما منير أخوه فانه حفظ جميع ما فى الصندوق لنفسه ، فلم يشكره أحد على ذلك ، وعرف بينهم بالبخل وحبه لنفسه فقط ؛ وطبعاً إذا كان مع أولاد آخرين (شكلاتة) أو (بلى) أو (كور) أو أى من اللعب الجميلة ، فسيعاملون كل واحد بما يستحق ، فيكون نصيب فريد الاشتراك فى كل شىء مع الأطفال ، أما منير فسيكون نصيبه الحرمان والانفراد » .

كذلك تروى له حكايات تحببه فى الطير وباقى أنواع الحيوان ، مثل حكاية « إحسان والعصفور » وحكاية « البويرة » و « الثلاث دبب » وحكاية « مراعاة شعور الغير »

وسأقدم الآن حكاية « إحسان والعصفور » ومضمونها الشفقة بالطائر :

« كانت إحسان مرة عائدة إلى المنزل من المدرسة ، فرأت فى الطريق ثلاثة أولاد يرمون بالحصى عصفوراً ضعيفاً ، كان قد أصيب بضربة من طفل شرير شقى فى أحد جناحيه اللذين يطير بهما ؛ لذلك لم يتمكن من الطيران ـ كعادته ـ فانتهز الأطفال الثلاثة الأشقياء الفرصة وعاكسوه أيضاً ، فنهتهم إحسان عن ذلك وقالت : حرام عليكم ، ماذا فعل لكم هذا الطائر

المسكين ؟ اتركوه فى سلام ودعونى آخذه أنا لأطعمه وأدفئه ؟ فضحكوا منها واستمروا فى معاكسته ، ولكنها تغلبت عليهم وأخذت العصفور إلى منزلها بعد أن نصحت الأطفال ثانية بالشفقة بالطيور ، لأنها مخلوقات مثلهم تحس وتتألم ، ومن يؤذها يؤذه الله . أما العصفور المسكين فمات بعد يومين لما حل به من الألم ؛ فأنبهكم إلى أن هؤلاء الأطفال قساة القلوب لمعاكستهم هذا العصفور الصغير حتى سببوا موته ؛ وإذا كان لم يؤذه أحد منهم ، لكان بنى عشه على الشجر فى حدائقهم ، وكان يسليهم بسماع صوته مبكراً كل صباح ؛ لأنه طائر نشيط مثل الطفل الشاطر الذى يصحو مبكراً ليذهب إلى مدرسته فى الميعاد ؛ وأيضاً لو عاملنا الطيور كلها - مش بس العصفور - (بل أيضاً الحمام والفراخ والغراب) بلطف ، لكان لنا أصدقاء كثير منها فى الحديقة وفى المنزل ؛ وإحسان كانت بنتاً صغيرة حلوة ؛ لأنها كانت تحب الطيور - والقطط أيضاً - وكانت لها كلبة صغيرة عمرها ماعذبتها ولا بخلت عليها بأكلها أبداً ، فلذلك كانت أمها وأبوها يحبوها خالص » .

ومن الحكايات التى تقال لبث روح « مراعاة المرضى » أو المحافظة على شعور الغير :

« ذهب شفيق إلى المدرسة فى الصباح عالماً بأن والدته المحبوبة مريضة جداً ، فلما عاد من المدرسة نسى هذا كله ، وأقفل الباب وراءه بقوة أزعجتها ، ثم دخل عليها حجرة النوم وهو يخبط برجليه ، ولما وجدها راقدة فى الفراش تذكر أنها مريضة ، فسألها بصوت مرتفع عن حالتها ، التى كانت وقتئذ سيئة جداً من تأثير خبط الباب وخشونة أقواله وحركاته ، فزعل والدته العزيزة بعدم المحافظة عليها ومراعاة شعورها ، بعكس الطفل الحلو عبد الفتاح ، فانه مرة ترك والدته مريضة ، وحضر إلى المدرسة التى كان يحبها كثيراً ، ولكنه لم يقدر على البقاء طول اليوم بالمدرسة دون أن يسأل عن والدته ، فأخذ إذناً بأن يعود إلى المنزل لمدة قصيرة ، ثم يرجع لدروسه ، فسمحت له المدرسة بذلك ، ولما ذهب لوالدته دخل عليها بكل أدب ولطف وسألها عن صحتها باهتمام ومحبة ، ثم استأذنها ليعود إلى المدرسة بقية اليوم ، فسرت منه للغاية وكذلك سرت منه المدرسة ، وحكيت حكايته لباقى الأطفال فصفقوا له طويلا ، وشكروه على حنوه ولطفه . »

أما حكاية الدبب الثلاث : فقصة على لسان الحيوان ، وهى من النوع الطويل ، وبها تكرار محبوب ومفيد ، وسأقتصر على ذكر فصل قصير من فصولها :

خرج مرة الثلاث دبب للرياضة قبل تناول الفطور ، ولما عادت إلى المنزل لاحظت أن غريباً دخل فيه ، وغير بعض معالمه ، فلما استعدت لتناول الطعام ، قالت الدبة الكبيرة (من جلس على الكرسى بتاعى ؟) ، فقالت المتوسطة (من جلس على الكرسى بتاعى ؟) ، وقالت الصغيرة (من جلس على الكرسى بتاعى ؟) ، ثم قالت الدبة الكبيرة (من أكل بملعقتى ؟) ، فقالت المتوسطة (من أكل

بملعقتى ؟) ، ثم قالت الدبة الصغيرة (من أكل أكلى بملعقتى وأكل أكلى كله ؟) .

هنا يسمع الطفل نغمات أصوات مختلفة ؛ كذلك يعرف أسماء أشياء عديدة مثل ، الملعقة والكرسى ، ويعرف أن ما يتبع لفرد لا يصح أن يعتدى عليه غيره بدون إذن . . . الخ

والأمثلة كثيرة من هذا القبيل ، نكتفى منها بما تقدم نظراً لضيق المجال .

أما الأغانى فتكون بنفس الروح مثل :

كل وزة تسبح فى المياه تسبح فى المياه
رءوسها فى الماء أرجلها فى الهواء
أبى وأمى الغالية أصبحتما فى عافية
تقبيلتان لكما ظاهرة وخافية
إحداهما على فمى وفى فؤادى الثانية
صباح الخير يأبتى صباح الخير يأمى
أقبل منكما يداً أعيش بفضلها زمنى

ويلاحظ أن تكون القصص والأغانى مما يشبع غريزة حب الاستطلاع فى الطفل لأنها أساس المعرفة عنده .

والحكايات أهم مايعبر عن خاطر الطفل ؛ بل هى أهم ما يشفى غليله بالنسبة لكل ما يريد أن يستوضحه أو يعرفه عن العالم الغريب المحيط به ؛ ويلاحظ فيها بعض التكرار غير الممل لبعض كلمات أو جمل ؛ كما ينبغى أن تقدر قيمة الخيال فى الطفل ؛ لأن الخيال هو أن يستعيد الشخص فى ذهنه بعض تجاربه السابقة كما رآها أو سمعها أو فى أية صورة أخرى يكيفها كما يريد ، ونحن نريد أن يكون كل مايستعيده الطفل جميلا طيباً ، ونقياً من الشر ، بريئاً من الانحطاط ؛ بحيث يرقى ويساعد ما يأتى به من فعال وأقوال ، ويدعوه إلى التفكير قبل القول والعمل ؛ كما يهذب تصوره غير المحدود ؛ وخياله الاختراعى المهوش أو المبالغ فيه .

وبما أن الطفل يسعى بفطرته الطبيعية لكشف أسرار بيئته بنفسه ؛ فهو يكون عقله بتجاربه الخاصة ويبنى شخصيته جزءاً جزءاً ، معتمداً على نفسه ؛ لذلك كانت الطريقة المثلى لتحقيق الأغراض المتقدمة ، هى قراءة أمثال الحكايات المشار إليها سابقاً . غير أن الطفل قبل سن السابعة لا يستطيع عمل ذلك منفرداً ؛ لذلك كان محتما أن تلقى عليه ؛ وهذا الإلقاء نوع من القراءة بالنسبة للصغير الذى يريد الكلام ولا يستطيع التعبير ؛ فهو فى الحقيقة يفرج عن نفسه هذه الضائقة بهذا النوع من القراءة ، حتى يقدر على عمل ذلك بنفسه ؛ كما أنه يعتاد سماع النطق الصحيح ، وأسلوب الالقاء الحسن ، إلى غير ذلك .

وهنا تجب العناية التامة باختيار القصص والرواة ؛ فليس سوء اختيار مايلقى على الطفل ، أو الخطأ فى انتقاء الرواة بالمشكلة البسيطة ، لأن كل شيء من حسن أو قبيح يجد فى الطفل أرضاً خصبة ينمو فيها ، وليس من الهين نزع الزرع منها بعد ذلك .

ولا ننس قوة التقليد فى الطفل ؛ ولنذكر دائماً أنها أول خطوة فى سبيل التطور ؛ وهذه ظاهرة تراها عين كل أم وكل مربية عند الطفل .

ماذا يقرأ الطفل فى سن السابعة حتى الثانية عشرة ؟

جدير بالذكر هنا أن نشير إلى بعض مميزات الطفل فى سن السابعة ، حتى يكون ما نرشده إلى قراءته ملائماً لحالته ؛ فالطفل فى هذه المرحلة يظهر أطوار العصور الغابرة ، بما فيها من توحش ؛ (يلاحظ الأمهات فى المنازل أن الطفل الكبير يضرب أخته أو أخاه الصغير بلا سبب ، كما يلاحظن أن الطفل يمسك بعصا يضرب بها الأرض أو أى شيء يصادفه ، مظهراً منتهى القسوة والخشونة فى فعلته ، أو أن يضرب بدميته الأرض فتتكسر أو تتسخ ، مع شدة إعزازه لها) .

لهذا يجب أن تشبع ميوله بحكايات مهذبة من هذا القبيل ، مثل حكايات جغرافية عن الهنود الحمر وغيرهم ، أو حكايات خرافية مثل « روبنسن كروزو » وبعض سير الأنبياء ببساطة واختصار ، وحكاية الطفلين فى الغابة ، وبعض فصول من قصة عنترة ؛ كذلك تروى حكايات تحبب للطفل الصدق فى القول وحسن معاملة الغير ، مثل حكاية « سندرلا » ، (وسندرلا هذه ، كانت بطلة الحكاية المسماة باسمها ، وكانت ابنة أب أساءت معاملتها امرأة أبيها وبناتها ، فكانت (سندرلا) المسكينة تقابل إساءاتها بصبر وثبات ، وقد جعل الله لها من يساعدها ويعطف عليها ، وكانت آخرتها أن تزوجت بأمير عظيم . أما أخواتها القساة فحرموا كل شيء حسن . وهذه الحكاية تتضمن أشياء كثيرة اجتماعية وخلقية ، ثم هى فى نفس الوقت ذات أسلوب شائق .

كذلك يشجع الطفل على قراءة كتب خاصة فى موضوعات خاصة : (فمثلا يدرس الأطفال موضوع « صنع السكر » ، فيمكن للطفل - الذى قرأ لنفسه شيئاً متعلقاً بهذا الدرس - أن يقرأه لباقى تلاميذ فصله من نفس الكتاب أو من الكتب التى تصفحها ؛ وفى دروس الجغرافية والتاريخ مثلا تتبع نفس الطريقة ؛ ولا مانع من السماح لمن يرغب من الأطفال ، أن يقرأ حكاية حقيقية أو خرافية أو ملحة أدبية أو ما شاكل ذلك ، بمناسبات تتخلل هذه الدروس وأمثالها ، وكذلك فى دروس اللغة العربية ، والحساب ، فانه يمكن للطفل أن يقرأ أو يحكى - بمناسبات ، بعض ما قرأ لنفسه ، مما يتعلق بالحساب ، أو بالعربى ، كالأمثلة الآتية :

١ — اختصمت سيدتان مرة - إلى سليمان الحكيم - على طفل ، وادعت كل منهما أنه

ولدها ، واقتضت حكمة سيدنا سليمان ، أن يقسم جسم الطفل نصفين، حتى تأخذ كل سيدة منهما نصيبها منه ؛ فما كان من الأم الحقيقية إلا أن تنازلت عن نصيبها فيه حرصاً على سلامته ؛ فعرف سيدنا سليمان أن السيدة الثانية كانت مدعية، فحرمها إياه وعاقبها ؛ اما السيدة الأولى فقد أخذت ابنها وذهبت به فى سلام ، جزاء صدقها .

٢ — وفى دروس الحساب يقال مثل الآتى : —

سأل مرة رجل طفله الصغير — الملحق بروضة أطفال ما — قائلا : « خمسة وخمسة يبقوا كام ياتوتو ؟ قال عشرة ياباباً، فقبله والده. وسأله : عشرة وعشرة يبقوا كام ؟ فقال له عشرين ياباباً ! ففرح أبوه جد الفرح وحمله بين ذراعيه مداعباً . وسأله مرة ثالثة : وعشرين وعشرين يبقوا كام ، قال يبقوا مليم ..!! » .

***

بهذه التشجيعات النافعة وأمثالها ، يفتح مجال القراءة أمام الطفل ، خصوصاً بعد شعوره بقيمة ذلك وضرورته له فى حياته العملية، وأيضاً سيتنبه لأن يبحث دائماً وباستمرار ليجد مادة يقرأ عنها ، ولو بمناسبات مثل: جمع المجاميع المختلفة، من ريش طيور، وطوابع بريد ، وأنواع حبوب.. الخ، فهو يتشوق لمعرفة أصل كل نوع، ويتشجع على قراءة القصص المتعلقة بالأمم الأخرى، ليقف على أحوالهم فى أوقات فراغهم وعملهم.

وحينما يتجه ميل الطفل الحقيقى إلى القراءة النافعة ، فهو يظل يقلب دائماً بين الكتب حتى يجد ضالته من كل نوع ، ويشعر بأن القدرة على إيجاد جواب لسؤال — يجول بخاطره عن طريق القراءة — مكسب عظيم ، لأنه أتى عن طريق التجارب الشخصية .

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ ، أن الأطفال فى أواخر المرحلة الثالثة من دراسته (أواخر طور الطفولة ٨ — ٩) يفرون من قراءة الحكايات المتضمنة لكثير من أحوالهم المعاشية ، والمتكررة يومياً تحت حواسهم وتجاربهم، بعكس المرحلتين السابقتين، فان الطفل يتحول ولعه إلى قراءة حكايات الفروسية ، مهما يكن نوعها ، ويحب أيضاً القصص المسلية والمضحكة والتاريخية ، والمتعلقة بالتجارة ، والسياحات الجغرافيــة ، والخيال الواسع ، وإلى كل ما يتعلق ببيئته بوجه عام .

لذلك تدخل هنا الحكايات الخرافية بدورها، وهذه المسألة مشكلة لنا عودة إليها فى المستقبل، ونشير الآن فقط إلى بعض أمثلة من الخرافات يصح أن يقرأها الطفل :

١ — حكاية « برسفن » Persevony or Child Roleend

٢ — بعض الخرافات المصرية القديمة مثل قصة « هورس » .

٣ — بعض حكايات ألف ليلة وليلة مثل : السائح البرى والبحرى ، ومثل عنترة .

٤ — بعض قصص « هومير » مثل قصص عباد الشمس . Sun-Flower Nurssisus

وسأحكى الآن حكاية « برسفن » باختصار .

عاش فى غابر الزمان ملك اسمه ادميتس Admetus ؛ وكانت أخلاق هذا الملك شاذة وغير حميدة مما سبب بغض الناس له، ولكن زوجته ألسيستس Alcistis كانت مضحية لأجله لحسن أخلاقها حداد طباعها، حتى إنها كانت لا تهاب الموت فى سبيله مطلقاً ؛ وقد ماتت فعلا وصار المنزل فى وجميل وحزن شديدين .

وفى تلك الأثناء حضر زائر غريب إلى منزل الملك ، ونادى الملكة طالباً إليها إحساناً ؛ وطبعاً كان الزائر لا يعلم بموت الملكة ألسيستس لأنه غريب ، فلما عرف الحقيقة حزن حزناً شديداً ، وشعر بخجل عظيم ؛ لأن أخلاقه حسنة وكل أصدقائه يعترفون بذلك .

وصار يلوم نفسه على عدم حرصه وعلى عدم تفكيره فى عواقب الأمور ؛ وكان هذا الزائر "Hercule,,se" هركيليز ، الملاك المعروف برقة الطباع وطيب الأخلاق ؛ لذلك عزم على أن يعمل عملا طيباً ، بحيث يمحو ما وقع فيه من خطأ خلقى ؛ وانصرف إلى حيث أتى .

وفى ذات يوم حضر (هركيليز) إلى الملك (أدميتس) بقصد الزيارة، وكانت تصحبه سيدة مقنعة ، فلما استقر للجميع بالجلوس ؛ عرض هركيليز على الملك أن يتزوج بالسيدة المقنعة ؛ فأبى الملك ذلك قائلا: « إنه وعد زوجته، ألا يتزوج من بعدها أحداً مطلقاً »، حينئذ رفع هركيليز القناع عن وجه المرأة، فاذا بها (ألسيستس) التى عادت إلى الحياة بعد الموت بواسطة (هركيليز)، لأنها ضحت من أجل زوجها، ففرح الملك كثيراً وعاش مع الملكة فى سرور ، وشكرا هركيليز .

***

بعد كل ما تقدم بقى علينا أن نتكلم باختصار أيضا عن :

القراءة عند الطفل

١ — إن ما يظهر عند الطفل من تلعثم (أى اللثة) أو فقفقة Stammering يرجع معظم السبب فيه ، إلى الضغط على الطفل بالقراءة فى سن مبكرة (أى فى سن ٤ — ٥ — ٦ مثلا) وهذا بلا ريب يجب أن يلام عليه الآباء دون المدارس ، لأن الوالدين يظهران شغفاً شديداً بسرعة تعليم طفلهما القراءة من أول يوم يذهب فيه إلى روضة الأطفال ، ولو كان فى الثالثة من عمره ؛ فالمدارس — رغبة منها فى إرضاء الآباء — تضطر الأطفال اضطراراً إلى القراءة ، فينشأ عندهم هذا المرض المعيب .

٢ ـ فى كل الحالات ـ ما عدا الشاذة منها بسبب عدم القدرة الطبيعية على القراءة ، أو عادة تحريك العيون غير الصحيحة أثناء القراءة ـ ، فانه يمكن العمل على إصلاحها بتشجيع الطفل ـ برفق ـ على استمرار القراءة مع السرعة أيضاً ؛ وعادة القراءة بسرعة لاتلبث أن تصير عادة شائعة بين التلاميذ خصوصاً إذا كانوا متشوقين لما يقرأون .

٣ ـــ وجد فى أمريكا بعد عمل إحصاء دقيق أن بعض التلاميذ من بنات وبنين بلغ عدد الكتب التى قرأوها فى السنة الأولى من ٢٠ إلى ٣٠ كتاباً .

ومتوسط الأغلبية قرأوا من ٨ إلى ١٢ كتاباً،وكانوا يختارون الكتب بأنفسهم من مجموعة كبيرة وضعت فى حجرة دراستهم ؛ وكان اختيارهم بمطلق الحرية مع إرشاد غير مباشر من المربين فحسب . ولا يفوتنا أن نذكر أن الكتب التى تقع تحت أيدى هؤلاء التلاميذ كلها جيدة الاخراج ، متنوعة المواضيع والدرجات .

٤ ـــ وفى حالة الأطفال الذين تختلف قدرتهم على القراءة ـــ أى الذين لاتتعادل قواهم ـ فإنه يصعب استعمال كثير من الكتب المتنوعة معهم ؛ لذلك يحسن الاكتفاء بعدد محدود من الكتب فى موضوعها ، وإنما تختلف فى السهولة والصعوبة ، بحيث يستطيع كل طفل الحصول على المساعدة والتشجيع الملائمين لحالته .؟

زينب الحكيم
اختصاصية فى رياض الاطفال

أسلوب التفكير فى الازهر

[بقية المنشور على الصفحة ١٢٠٨]

منها إلى صبغة حديثة تتفق وحياتنا الجديدة فى « القرن العشرين » ؛ وبهذا نستطيع أن نهجم على آثار أسلافنا الجليلة ، ونبعث منها هذا الفيض الروحى الذى يتهافت عليه العالم الغربى ليروى به ظمأه ، بعد أن أعطشته المادة ، وغدا يتلمس روحانية الشرق وإلهامه ووحيه الصادق الأمين .

وبهذا تكون الجامعة الأزهرية جامعة عصرية دينية، تبحث فى علوم المتقدمين وآثارهم ، وتحتل مكانها اللائق بها فى تيار المدنية الحديثة، ويستطيع الأزهر أن يؤدى واجبه الحق فى المحافظة على الدين الاسلامى الحنيف ، وتدعيمه وصيانته من ألسنة السوء ، ومساعدته على التطور والارتقاء .؟

أحمد توفيق عياد

صفحات فى الادب الالمانى

اتحاد شـــعراء جوتنجن

زوبعة ودفع

Sturm und Drang

بقلم الدكتور على مظهر

كانت لتلك الآراء والأفكار الحديثة التى أذاعها الأقطاب الأربعة للشعر [1]، أثراً قوياً فى نفوس الشبيبة الألمانية، ولذلك أحدثت رجة هائلة عند الألمان فى الأدب والفنون؛ فما جاءت سنة ١٧٧٠ م حتى رأينا البذور التى غرسها كل من: كلوبشتوك، وفيلاند، ولسنج، وهردر، قد أنبتت نباتاً حسناً مزدهراً؛ وجاء (جوته) ومن عاصره أو جاء بعده، وكانت تلك الآراء قد اختمرت فى نفوسهم، وملكت عليهم حواسهم وشعورهم؛ ويعرف ذلك العصر فى الأدب الألمانى، بعصر الزوبعة والدفع، وأعلن الشباب الحرب على ما كان بعصر الايضاح من آراء تافهة، وما ساد الأفهام من برود؛ وكانت آراء (روسو) قد وصلتهم فنادوا معه: هيا إلى الطبيعة، ولندع للقلب وللميول ما لها من حق فى أن تظهر ما بها؛ وقد كان كلوبشتوك أول من تغنى بالحب والصداقة؛ وأعجب بعض الشباب الذين كانوا يدرسون فى جامعة (جوتنجن) فى أوائل سنة ١٧٧٠، بما كان يقول ذلك الشاعر، وما كان يتغنى به، وكونوا لهم جماعة عرفت (باتحاد شعراء جوتنجن)، وكان جلهم قادراً على قرض الشعر الغنائى. نذكر من بينهم، سيدين من أسرة شتولبرج. وكان أثر تلك الحركه كبيراً فى شعر المآسى؛ وقد علمنا ما كان من لسنج، وما كان من نقده اللاذع للمآسى الفرنسية التى شايع فيها كاتبوها الأدب القديم؛ وما كان من تفضيله شكسبير؛ فدعا كل ذلك الشباب المتحمسين إلى طرح كل القوانين المحظرة المقيدة للشعر والأدب، وجعلهم ذلك أيضاً ينادون بالتحرر من تلك القيود والمحظورات، فنلحظ عليهم أنهم لم يفهموا شكسبير فهماً صحيحاً صادقاً لا طلاقه لنفسه الحرية فى (المكان) و (الزمان)، وكان يتخذه كتاب المآسى المحدثون فى ذلك العصر مثالا يحتذونه، لأنه كان يحسن ويحيد عن كل تلك القيود الفنية، وكان لا يعنى بها ويوفق فى ذلك، بل إن أولئك الشباب الذين تدفعهم تلك الآراء الحديثة وتحركهم، كانوا يرجون أن يبذ شكسبير فى طريقته، وأن يغرق هو فى آرائه، حتى رأوا أن لا يتقيدوا بالقيود الشعرية

(١) لسنج وكلوبشتوك وفيلاند وهردر، وقد كتبنا عنهم فى الاعداد السابقة ج ٦ و ٧ و ٨ و ٩ من «المعرفة» السنة الثانية.

المعـروفة ، ولا أن يراعوها ؛ فعمدوا إلى النثر وفضـلوه على الشعر ، وكانوا يعتبرون أن شـكسبير أحسن قدوة لهم فى وصف الآلام الانسانية وشهواتها وميولها ، وقد دفعهم نزق الشباب إلى تخير المواضيع التى قوامها المناظر الوحشية والميول القوية الحادة والفواجع الفظيعة ، مثل قتل الأطفال وهجر الحبيب وخداعه وخصام أخوين أحب كل منهما نفس الفتاة التى يحبها الآخر ؛ وكانوا يفضلون أمثال تلك المواد لـكتاباتهم . كما كانوا يرغبون أن يأتوا بشىء جديد مما يحدث فى الحياة اليومية المنقول عنها ؛ وأنت ترى (هردر) قد حمل اللواء لشيعة تلك الآراء ورأيت ما كان منه من ميل إلى الشعر الأولى ، وإلى أغانى الشعب ، وما كان من رأيه فى هومير وشـكسبير وأنهما شاعرا الفطرة ؛ وكبر تأثير هردر على جوته عندما التقيا فى شتراسبورج فانه ألف (جوتز فون برلشنجن) و (وآلام الشاب فرتر) متأثراً بآراء وتعاليم هردر .

شيلنز فيج

وقد تقدم تلك الطبقة من شعراء (الزوبعة والدفع) رجل ولد سنة ١٧٣٧ فى مقاطعة (شيلزفيج) نعنى به (هاينريش فيلهلم فون جرستنبرج) ، وقد عين وكيلا لحكومة الدانمارك فى مدينة لوبك سنة ١٧٧٥ ، وتوفى بالوثانى سنة ١٨٢٣ . وترى أثر شعر كلوبشتوك ظاهراً فى بعض قصائده ؛ كما أنه ألف كتاباً أسماه (محاولة على مؤلفات شكسبير وعبقريته) ، فتراه نبذ كل القيود والمحظورات فى المآسى ؛ وقال إن (العمل) فيها شىء ثانوى ، وإن شكسبير أراد أن يصور روح الانسـان فى كل ناحية من نواحى تنقلها وحركاتها ، وألف مأسـاة سماها (أوجولينو) سنة ١٧٦٨ .

راينهولد لنز

ومن أمثال جرستنبرج ، رجل آخر اسمه (ياكوب ميكائل راينهولدلنز) المولود سنة ١٧٥١ فى (ليفلاند) ، وكان صديقاً لجوته لما كان فى شتراسبورج ؛ وتوفى سنة ١٧٩٢ بجوار موسكو مخبول العقل معوزاً فى أشد حالات الفقر والفاقة ، لما كان له من شهوات وميول وحشية لم يتمكن من كبحها والتغلب عليها . وقد ألف بعض المآسى التى لا قيمة لها ، وألف كتاباً أسماه (ملاحظات على التمثيل) .

كلنجر

ونذكر أيضاً (مكسيميليان كلنجر) ولد سنة ١٧٥٢ فى مدينة فرنكفورت الواقعة على الماين من أبوين فقيرين ، ولـكنه ما زال يعمل ويجد حتى أصبح (فريقاً) ، ثم عين مراقباً فى جامعة دوربورت ، وكان صديقاً لجوته فى شبابه . وقد ألف رواية تمثيلية أسماها (زوبعة ودفع) سنة ١٧٧٥ . وقد عرف العصر الذى ظهرت فيه بهذا الاسم تبعا لها ، وقد ذاع اسمه لما ألف فاجعته المسماة (التوأمان) ، وقد نال بذلك جائزة مسرحية ، وكتب غير ذلك عدة مآسى تتفاوت قيمتها ، نذكر منها (الحبل) و (اللاعبين الملفقين) و (ميديا) ، وهى من خير

ما كتب . وقد كتب بعض الروايات والقصص أيضاً، نذكر منها (حياة فوست وأفعاله وذهابه إلى النار) وغيرها ثم نذكر :

مولر

فريدريش مولر ويدعى عادة مولر المصور، ولد سنة ١٧٤٩ وتوفى بروما سنة ١٨٢٥ وكان مصور بلاط ملك بافاريا . ولا يمكن لأحد أن يبخس قدره ؛ فقد كتب (فاوست) وهو الموضوع الذى كان يلذ قراءته فى ذلك العصر ، وروايته التمثيلية (جولو وجينوفيفا) و (نيوبى)، وله بعض أغانى وأناشيد على حياة الرعاة .

شوبارت

ثم كريستيان فريدريش دانيل شوبارت أصله من الشواب ، ولد سنة ١٧٣٩ فى كونتيه لمباخ، وتوفى فى شتوتجارت سنة ١٧٩١ وله قصائد فى حب الحرية وغير ذلك من المواضيع، وقد كان لتلك القصائد ، ولما كان له فى الحياة من مكان وخطر، أكبر الأثر فى نفس (شلر) لما كان فى سن الشباب.

اتحاد شعراء جوتنجن

قد رأينا ما كان من اتحاد شعراء ليبتزج واتحاد شعراء هالا . والآن نرى بعضاً من الشعراء والأدباء قد أسسوا لهم مجمعاً يجمعهم فى مدينة جوتنجن سنة ١٧٧٢، وكان جلهم من شباب الشعراء ، نذكر منهم كريستيان بوا (المتوفى سنة ١٨٠٦)، وفريدريش فيلهلم جوتز (المتوفى سنة ١٧٩٧)، وغيرهما كانوا يعجبون بكلوبشتوك كما كانوا يميلون عن شعر فيلاند الحسى ويهجونه ؛ وكانوا يطلقون على مجمعهم (اتحاد شعراء جوتنجن) أو (اتحاد الحديقة) ؛ ولم يكن يستعمل أعضاؤه سوى لفظتى: (الاتحاد) أو (الغابة) ؛ والسبب فى هذه التسمية أن الذين كانوا يحررون(تقويم عرائس الشعر والأدب) أمثال بوس وهولتى وملر وثلاثة رفقاء لهم آخرون اجتمعوا فى غابة بلوط ، وكونوا لهم اتحاد صداقة ومحبة ، كما أن الشاعر كلوبشتوك كان يطلق على الشعر الوطنى لفظ غابة البلوط ، كما كان يطلق لفظ (پارناس) تل على الشعر غير الألمانى ، وسرعان ما شطت الديار بين أعضاء ذلك الاتحاد ولكنهم تمسكوا بعروته الوثقى . وظل ذلك التقويم الذى كان يصدره كل من بوا وبوس صحيفة اتحادهم .

بيرجر

ومن خيارهم نذكر الشاعر جوتفريد أو جوست بيرجر، ولد سنة ١٧٤٧ ،وقد ذهب إلى جوتنجن ليتم تعليمه، وتعرف هناك ببوا وقد ساعده بنفوذه ليجد له عملا بمحكمة قسم (التنجلايشن)، ولكنه سرعان ما ترك هذه الوظيفة وعين للتدريس بجامعة جوتنجن . وقد صار أستاذاً بها فيما بعد . وكانت حياته الخاصة ملأى بالمتاعب والمشاغل، فانه لم يوفق فى زواجه مراراً ، وغلبته الأحزان والهموم فمات سنة ١٧٩٤ ،وهو لم ير من نعيم الحياة خيراً ، وقضى معدماً من المال ، عدا حملات شديدة حملها عليه شلر فى شعره حتى حمل الناس على الشك فى منزلته الشعرية . وهو الذى قدم للألمان ذلك النوع من القصص الشعرى المعروف بالأغانى

(Ballad) . وخير آثاره قصة شعرية أسماها (لينوره)،نشرت فى (تقويم عرائس الشعر والأدب) الذى صدر فى جوتنجن سنة ١٧٧٤ . وكانت قصة شعبية يعرفها الناس فى اسكوتلنده والسويد والنرويج والدانمارك وفى شمال ووسط ألمانيا . ويذكر للشاعر عدا ما ذكر بعض الأغانى الشعرية والقصص الخيالية ،كلها أسى وألم تنبعث منها الحياة و مستمدة روحها من الشعب . وله أناشيد ومقطوعات شعرية ، كما أنه ترجم (سياحات عجيبة ومخاطرة مونشها وزن)، وكانت قد ظهرت لأول مرة باللغة الأنجليزية فى لندن سنة ١٧٨٦ . وكان كاتبها ألمانياً يدعى رودلف اريش راسيه،أمين دار كتب كاسل ، ومفتش دار آثارها السابق.

بوس

ثم يوهان هاينريش بوس : وقد ولد سنة ١٧٥١ فى مقاطعة مكلنبرج . كان روح الاتحاد الآنف الذكر فى الواقع ، وكان أبوه يستأجر الأرض واشتد به العوز وشب الولد فقيراً فكفله بعض أصحابه؛ وقد أدخل مدرسة نويبندنبورج ، وسهل عليه (بوا) الالتحاق بجامعة جوتنجن ، ولبث هناك حتى أسس ذلك الاتحاد سنة ١٧٧٢ ، وقد باحث صديقه ثم اصبح مدير المدرسة ، ثم انتقل إلى غيرها حيث كان صديقه ليوبولد فوشتون لبرج يقيم ، وكان عمله هناك مجهداً أضعف صحته ؛ فذهب إلى (يينا)، وتركها لما غضب عليه جوته غضبته وذهب إلى هيدلبرج ، وهناك قضى سنة ١٨٢٦ بعد أن أصبح مستشاراً لبلاط بادن .

كانت أخلاق بوس كغيره من سكان شمال ألمانيا ، وقد جمع إلى ما كان له من عقل رصين شيئاً من الصلابة تؤدى إلى الشدة والحذر فى بعض الأحايين ،ولكنه كان طيب القلب لطيفاً مع أصحابه شديداً مع أعدائه ، وكان يميل إلى الشعر الغنائى ، وكان يجيد فى نوع قصائده عن الرعاة ، وكان يجيد فيها وصف حياة سكان ألمانيا الشمالية ، كما كان يدعو فيها إلى الحياة المنزلية الوادعة الساكنة وإلى سعادة الأسرة ، ولم يكن ليأتى بخيال مبدع أو مثل علياه يخلقها من عنده ، ولكنه كان يصف أشخاصاً ذوى جد واستقامة ، وذوى خشونة كما ترى ذلك فى الواقع المحسوس.

وكان أميناً فى نقل ما يريد أن يصفه للناس ، متوسعاً فى ذلك حتى فى الدقائق الصغيرة لأصغر الأعمال ، كما ترى ذلك فى قصيدته الشهيرة (لويزه) التى نشرها سنة ١٧٩٥ .

وقد ترجم بوس عن اللغات الأجنبية ، وقد خدم بذلك اللغة والشعر خدمات جليلة. فتراه يتسامح كل التسامح فى القريض، كما نه نحت ألفاظاً جديدة فى اللغة وأوجدها لها ، أخذ جزءاً منها عن كنز اللغة الألمانية القديمة،وعن إنجيل لوثر، كما استعار تعابير من لهجة الألمان الشماليين كانت قد تنوسيت . وكان يجهد فى المحافظة على الأصل واللب بكل ما أوتيه من قوة إذا نقل إلى الألمانية .ولك أن تعده مؤسس فن الترجمة فيها ، فقد ترجم (الأوديسى) سنه ١٧٨١، وترجم (الالياذة) ،كما نقل عن : فرجيل ، وأوفيد ، وتيبول ، وهزيود ، وهوراس،

وتيوكريت ، وأرستوفانس ، ومما أجاد ترجمته ما نقله عن هومير ، فقد جعله كأنما قد كتب بأصل ألمانى .

شتولبرج

أما كريستيان جراف (كونت) تزو شتولبرج ،فقد ولد سنة ١٧٤٨ وتوفى سنة ١٨٢١، وكان حاجباً لملك الدانمارك ، وهو أسن الأخوين اللذين درسا فى جامعة جوتنجن واشتركا فى الاتحاد المذكور، على أنهما من أصدقاء كلوبشتوك وشيعته . وهو يأتى بعد أخيه فى الشعر ولو أنه أجهد نفسه فى أن يدانيه . أما أخوه فهو : فريدريش ليوبولد جراف تزو شتولبرج، ولد سنة ١٧٥٠ فى مقاطعة هولشتين ؛ كان أكبر مناهض ومبغض للطغاة فى حداثته، وقد بز أخاه فى ذلك ؛ وإن لم يثبت كلاهما على آرائه السياسية والدينية، بل تنحيا عنها بتأثير لافاتر على فريدريش،ولما تعرف إلى دائرة الأميرة جوليتزين —وكانت من أكبر أنصار الكثلكة— علته مسحة من التصوف، وقد اعتنق هووجل أسرته المذهب الكاثوليكى سنة ١٨٠٠، وإن كان هو قد اعتنقه سراً قبل ذلك بسنتين، فعاداه صديقه بوس لهذا السبب . وقد توفى شتولبرج سنة ١٨١٩ وهو فى ضيعة له .

كان شتولبرج ممن يتشيعون لكلوبشتوك ولذا مال إلى الاشتغال بعروض قدماء الأغريق كما كان يفعل صديقه هذا ، وعلى غرارها أنشد كل قصائده الوطنية،وقد كتب بعض المآسى محتذيا سوفوكلس فى ذلك،ولم تكن إلا سرد حكايات بطريق المحادثات ، ومن خير ما يذكر له بعض الأناشيد .

هولتى ومولر

أما لودفيج هولتى فقد ولد فى سنة ١٧٤٨ فى ماريتره،وكان أبوه قسيساً فى قرية ، ولما كان يدرس فى جوتنجن اشترك فى تأسيس الاتحاد ، ولو أنه لم يكن يميل إلى ما كان يثيره أصدقاؤه من أعاصير وزوابع على الأدب ، وكان عليلا منذ شبابه ، غلبت عليه السوداء والأحزان .

وله أغانى وأناشيد ومراثى وقصائد للرعاة،منها واحدة ملأى بحب الوطن والوطنية ،وقد مات بهانوفر سنة ١٧٧٦ ، وهو لايزال فى سن الشباب. ثم نذكر مرتين مولر الذى ولد سنة ١٧٥٠ وتوفى سنة ١٨١٤؛وقد اشترك هو الآخر فى تأسيس الاتحاد ،وكان مثل سابقه لا يميل إلى العنف وإثارة الزوابع، ولا إلى الشهوانيات،فترى قصصه الخيالية تسيل عذوبة وإحساساً صادقاً . أما قصته التى أذاعت ذكره فهى (زيجفارت) عن حياة الأديرة . وقد كانت مثالا احتذاه كثيرون من بعده كما كان الحال بعد ظهور قصته (فرتر) التى كتبها جوته. ومن أغانيه ما أصبح يتغنى به الشعب .

ليزيفيتز

ثم نذكر يوهان أنطون ليزيفيتز : ولد بهانوفر سنة ١٧٥٢، ودرس فى جوتنجن وألحقه

هولتى بالاتحاد ،ومات سنة ١٨٠٦ فى براونشفايج .وله فاجعة اسمها (يوليوس فون ثورنث)، كان يظن لسنج أن كاتبها جوته ، وكان شلر يحفظها كلها عن ظهر قلب فى صباه ، ونال صاحبها عليها جائزة دار التمثيل الوطنى بهامبورج التى خصصها للفواجع . وقد هجر الشاعر القريض بعد ذلك وتفرغ لأعماله القضائية .

وممن لم ينتسبوا للاتحاد — وكان لهم ذكر — بعض شعراء نذكر منهم ماتيوس كلاوديوس، ولد سنة ١٧٤٠ فى هولشتين ، ودرس فى يينا ، وكان يصدر مجلة أسبوعية ، ومات بهامبورج سنة ١٨١٥ . ومع أنه لم ينتسب للاتحاد إلا أنه كانت له بعض الصلة بأعضائه ، كما كان يتشيع لكلوبشتوك،فكان يتحمس للشئون الدينية وللوطن مثله . وكان يميل إلى الأوصاف الشعرية الخاصة بالشعب كما كان يفعل بوس . وكان ماتيوس يجيد ذلك فى أغانيه . ثم نذكر من أولئك الشعراء فريدريش ماتيسون (ولد سنة ١٧٦١ ومات سنة ١٨٣١) ، وكان أستاذاً فى تصوير المناظر الخلوية ، وله بعض القصائد التى لا بأس بها، ثم جاودنز فون ساليس (ولد سنة ١٧٦٢ وتوفى سنة ١٨٣٤). وكريستوف أوجست تيدجه (ولد سنة ١٧٥٢ ومات بدرسدن سنة ١٨٤١) . ومارتين أوسترى من مدينة تزيورخ (مات سنة ١٨٢٧). ويوهان بيترهيبل (ولد فى بازل سنة ١٧٦٠) وكان أبوه نساجاً فقيراً، ومات يوهان سنة ١٨٢٦ لما كان أسقفاً فى بادن ، وله بعض القصائد والأغانى . م؟

على مظهر

المستشرقون وضررهم على الاسلام

بيني وبين مرجليوث

بقلم الدكتور حسين الهراوى

نترك للأستاذ الفاضل صاحب « المعرفة » – إذا شاء – أن يذكر الظرف الذى أحرجه فى مناقشاتنا معه مناقشة خاصة ، جعلته يستدل برأى « مرجليوث » الذى بعث به إليه فى خطاب أطلعنا عليه ، والذى دون فيه رأيه عما نكتب من ضرر المستشرقين على الاسلام ، خصوصاً وقد تناولنا مرجوليث نفسه بالتخصيص ، لأنه فى نظرنا أنموذج لايجعل الناس يطمئنون إلى مايكتبه المستشرقون عن الاسلام ، وعن محمد عليه السلام .

قال مرجوليث : « أما ما كتب الدكتور حسين الهراوى فى ذم المستشرقين ، فلو كان ما أودع مقالته من الشخصيات تعلق بالآداب لم يكن ما يمنع من الخوض فى الموضوع والتمييز بين الخطأ والصواب ، وأما المسائل التى ذكرها فلست أرى فائدة فى مداخلتها لكونها أقرب إلى منبر الخطباء منها إلى مجالس الأدباء »

د . س . مرجليوث

ورداً على ذلك نقول : إننا تناولنا من آراء « مرجليوث » نقطتين مما كتبه فى التاريخ العام للعالم فى الفصل التاسع والثمانين .

الأولى أنه قال: إن عبد الله يطلق على الشخص المجهول ، وربما كان له مثل هذا المعنى عند إطلاقه على والد النبى .

والثانية : أنه قال فى نفس الفصل ، وفى صحيفة ٢٣٩٨ : « إن إعجاز أسلوب القرآن يفسر إما بأنه لا يمكن تقليده أو الإخبار بأمور يمكن التحقق منها ، ولم يكن للنبى وسيلة لمعرفتها ، وإننا نعلم من القرآن أن كلا من هذين الادعائين – عندما أذيع – لم يسلم من النقد ، فالأمر الأول أن ذوق الأسلوب الأدبى يختلف كباقى الأذواق الخ . . . »

وكذلك قال فى هذا الفصل: إن محمداً – عليه السلام – اعترف فى مبدأ رسالته بمعرفته القراءة . ولنناقش نقط مرجليوث هذه التى يرى ردنا عليها فيما مضى ، ليس له علاقة بالأدب العربى . فأما عن والد سيدنا محمد ، فنحن ننكر على أدب أستاذ فى جامعة أكسفورد ، أن يوجه مثل هذا

الطعن لنبي يدين بدينه ملايين المسلمين ، وأن يتفوه بتهمة تترفع أبسط قواعد الآداب العامة عن أن توجهها لأى الناس .

وثانياً : إن مرجوليث لايعرف شيئاً من الأدب العربى، وإلا لعلم أنه كان فى العرب نسابون ، ولو أنه تكلم أولا عنهم — وعن مصادر الشك فى أقوالهم وتنسيبهم — لكان لنا أن نناقشه بالأدلة العلمية ، أما وأنه لم يذكر شيئاً من هذا فدليل على أنه لايعرفه .

وثالثاً : لأن جد محمد عليه السلام وعمه هما اللذان كفلاه صغيراً ، ولو كان مجهول الأب ماعرف له عم ولا جد ، وهذا يدل على أن مرجوليث لايعرف شيئاً من تاريخ سيدنا محمد عليه السلام .

رابعاً : إن عصبية محمد عليه السلام حمته فى مبدأ رسالته ، ولو كان مجهول الأب ما كانت له عصبية ، فاذا كان مرجوليث لا يصدق شيئاً من هذا ، فليقل لنا هو كيف يريد أن نصدق كلامه ؟ وكيف أمكن وجود أشخاص تربطهم بالنبى الكريم صلات العصبية حتى بعد الاسلام ، إذا كنا ننكر كل ذلك لأن مرجوليث قالها ؟ إذن فعلى العقول السلام ! ثم فليفسر لنا مرجوليث كيف مكنته نفسه وكيف مكنه ضميره من يقول هذا ، وعلى أى المراجع الموثوق بها عول فى بحثه ؟ فهو إما لايعرف شيئاً مطلقاً ، وأن ما يريد التشهير والتشنيع ؛ وهذا مالايشرف الباحثين .

ثم فليجبنا : أليست الأنساب والنسابون جزأين من صميم التاريخ والأدب العربى ، أم هى ضروب من خطب المنابر ؟ وإذا كانت ضروباً من خطب المنابر ، فكيف حفظ التاريخ أنساب قوم لم يكن لهم مرتبته عليه السلام من الوجهة الاجتماعية ؟ وكيف أمكن معرفة نسب والدته وزوجته خديجة ؟ أم كيف أمكن تنسيب شعراء مشهورين مثل امرىء القيس وغير امرى القيس ؟

أما القول فى مسألة إعجاز أسلوب القرآن بأنها مسألة ذوق ، فانى أرى أن مرجوليث — كما نستدل من تعبير خطابه — ذو أسلوب ملتو ركيك، يجعله آخر شخص يؤخذ برأيه فى مسألة الذوق الكتابى، بعد أن تحدى القرآن نفسه الناس بل الانس والجن مجتمعين، أن يأتوا بسورة من مثله، فما استطاعوا . فلم يبق فى نظر صاحبنا مرجوليث إلا نقد الاسلوب بميزان الأذواق التى تختلف دقة ورقة ، ونحن معه على أن يكون الشرط الاساسى أن تكون هذه الأذواق سليمة ، تتفهم روح العربية . والمستشرقون هم أبعد الناس عن تفهم تلك الروح ، ولهذا فانهم ينشرون مؤلفاتهم باللغات الأجنبية، وإن كانت بعض مقدمات الكتب التى طبعوها ، قد كتبت باللغة العربية ، إلا أن الحكم على أساليبهم قد لا يرضيهم من وجهة الأدب الكتابى الفنى .

وإذا كان مرجوليث حصر إعجاز القرآن فى الأسلوب والإخبار بالغيب ، فقد فاته أن ضروب الاعجاز فى القرآن كثيرة ومتنوعة ، وليس من موضوعنا شرحها ، وإنما نحيل القارىء إلى ما كتبناه عنها فى مباحثنا فى الرد على المستشرقين ، وأضرابهم المبشرين[1] .

على أننا نسائل هنا أستاذنا مرجوليث : ماقوله دام فضله فى أنواع الاعجاز العلمى التى أثبت العلم الحديث مدى صدقها . ونذكر منها على سبيل المثال : «وجعلنا الرياح لوافح» ، و «خلق الانسان من علق» ـ أى دود الحيوانات المعنوية ـ و « خلقناكم أطواراً » ؛ وهى تتمشى مع العلم جنباً إلى جنب ؟

فهل كشف العلم عن إعجاز هـذه الآيات إلا حديثاً ؟ وهل كان الميكروسكوب ، وعلم تكوين الأجنة معروفاً من قبل عند نزول القرآن الكريم ؟

ولا يفوتنا أن نتكلم عن النقد ، فالانتقاد هو أسهل شىء فى العالم ، فقد ينتقد شخص ما الخلقة البشرية ، بأن عينى الانسان فى وجهه ، وليس له مثلهما فى قفاه لينظر من الخلف والأمام ، وقد ينتقد البهلوان طريقة السير على الأقدام ، ويستحسن أن يمشى الانسان على يديه رافعاً قدميه فى الهواء ! كل هذه أنواع انتقادات قد يراها أهلها صحيحة ، ولكن الذوق السليم والعقل السليم بصفة خاصة يأبيانها على منتقديها .

وهذا هو النقد الذى يوجه إلى تجاهل نسب النبى الكريم ، فأسلوب القرآن لايقصد به إلا مجرد التشهير والتشنيع .

ثم ماذا يقول فى فهمه تفسير « اقرأ وربك الأكرم » بأنها اعتراف من النبى الكريم بمعرفة القراءة ، فهل هذا يدل على تفهم روح القرآن ؟

ولقد أطيل البحث إذا استقصيت آراء مرجوليث فى مصادر القرآن التى يقول بها ، ويقول بها معه المستشرقون الذين على نمطه ، فقد ادعوا أن النبى عليه السلام قد درس كل الفلسفة اليونانية ، ثم حفظ كل التاريخ الفارسى ، ثم عرف كل الأديان الهندية القديمة ، كما اطلع على كل حكم الصين فأخرج من كل هؤلاء كتاباً سماه القرآن .

ومعنى ذلك أن الدراسات التى استنفدت القرون الأولى حتى القرن العشرين لدراستها ، وتخصص لها العلماء الذين عكفوا على دراسة لغاتها المتعددة ، والتجوال بين آثارها البالية ، كل هذا ، قد تعلمه محمد عليه السلام فى سياحته للشام ، فاذا رجعت إلى التاريخ وجدت أن هذه السياحة لم تكن إلا ثلاثة شهور ، فهل فى هذا منطق يناقش ؟ وهل هذا أسلوب المنابر ، لم فى صميم الأدب العربى والتاريخ ؟ !

الدكتور حسين الهراوى

---

(١) راجع فى هذا «مجلة المعرفة» . ابتداءاً من عدد يوليوسنة ١٩٣٢ وما بعده .

فتاة اليوم

وواجب الآباء

للأستاذ أمين فهمى أحمد

— ١ —

عصر الثقافة هل علمـ ت بأن قومك فى انحلال؟
سرب القطا فتن الرجا ل ، ولا حمية للرجال
يخدعن بالحسن المموه فى مشاكلة الغزال
لا حظ للخلق القويـ م ولا رعاية للحلال
لا عطف يصحبه الوفا ء ، ولا وفاء بغير مال
عند المليحة والقبيـ حة والمثقفة الخصال
المال معبود الجميـ ع وليس بين (الغُزِّ) غالى

— ٢ —

خطل أخىَّ تكون من صرعى أفانين الدلال
لا يستبيك الحسن إن كنت المهيم فى الجمال
لا حسن إلا فى الخلا ل ، وأين كاملة الخلال؟
لولاه تحنان الرجا ل لضم ضلعهم الشمالى
لاختار جلهم يعيـ ش محرراً ، والكل سالى

— ٣ —

هذا الوجود مُطالب بعض لبعض فى اتصال
ولحكمة المعبود قا م وجودنا حقباً خوالى
بتزاوج الأنواع حتـ ى لا تساق إلى الزوال
لولا الترابط كانت الدنيـ ا هباءً دون قال

— ٤ —

يأيها الغيد ! الجمال بهاؤه صون الجمال
يامن تركن فضائل الخلق النبيل إلى الضلال
هذا التمدين قد أزال بقية المثل العوالى
وغدا الرجال كما ترين مروعين من الخبال
لا يرتضون لبيتهم أمثال ربات الحجال

— ٥ —

عار الفتاة على أب يرضى الفتون ولا يبالى
يدع الفروض ولا يلى أبناءه فى كل حال
مأواه فى مقهى أو السهر الطويل على التوالى
والبنت والأم استمدت خلقها من كل بالى
وكذا الشباب ولا شباب مهدمين بلا جدال

— ٦ —

ياقوم هبوا للفضيلة حسبكم فيض النكال
لا تحسبوا النصح البرىء أتى من شيخ مغالى
كلا ، ولكن الكمال يحن دوماً للكمال
ليس التعلم أن تكون البنت فى صف الرجال
لكن إلى هذا ، تكون لبيتها خير المثال
أما تهذب من بنيها ، والبنون حمى الموالى

— ٧ —

أخلاقنا ضاعت فهيا للنزال أو النضال
مصر تناديكم كراماً أقوياء على الطوال
ردوا الحياء إلى البنات لتصطفى أم العيال
فالعلم دون تخلق بالفضل ، شر من وبال

أمين فهمى أحمد

٢ - فى كتاب ابن الرومى*

للأستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأستاذ مصطفى جواد [بغداد]

أخبرنا الخالع : أخبرنا على بن جعفر الهمدانى ، قال : أنشدنى ابن الرومى وقال : ماسبقنى إلى هذا المعنى أحد :

إذا دام للمرء الشباب وأخلقت محاسنه ظن الشباب خضابا
فكيف يظن الشيخ أن خضابه يظن سواداً أو يخال شبابا ؟

أخبرنى الحسين بن محمد أخو الخلال ... حدثنى جحظة قال : كنت مع ابن الرومى فى عمارية فرأينا «أبا رياح» على دار ابن طاهر (١) ، فقلت له : صف هذه الشرفات (٢) وأبا رياح ، فقال :

ترى شرفاتها مثل العذارى خرجن لنزهة فقعدن صفا
عليهن الرقيب أبو رياح فلسن لخوفه يبدين حرفا

أخبرنى على بن أيوب القمى ... أخبرنى الصولى ، حدثنى على بن العباس ، قال : كان البحترى معى جالساً فسلم عليه ابن العيسى بن المنصور ، فقال لى : من هذا ؟ فقلت : هذا ابن عيسى بن المنصور ، الذى يقول ابن الرومى فى أبيه :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

فقال لى : أف وتف ، هذا من خاطر الجن ، لا من خاطر الانس ، ووثب ومضى ؛ أخبرنا الخالع ، أخبرنا على بن جعفر الهمدانى ، قال : أنشدنى ابن الرومى فى عيسى بن موسى بن المتوكل : يقتر عيسى على نفسه ... وذكر هذين البيتين ، (كذا قال فى عيسى بن موسى بن

---

* راجع «المعرفة» جزء يناير سنة ١٩٣٣

(١) يقول مصطفى جواد «كانت دار ابن طاهر فى الحريم الطاهرى ، على شاطىء دجلة بالجانب الغربى من بغداد (عن تاريخ الخطيب البغدادي ج ١ ص ٦٩و٨٥ .وخلاصة الذهب المسبوك ص ١٦٥و١٧٨ والمروج ١٠ : ٤٩٠ و ٥١٤» وهى دار محمد عبد الله الطاهري

(٢) كثير من كتاب مصر وسورية والعراق لا يعرفون حقيقة الشرفة . فيستعملونها بمعنى الروشن والجناح والطنف والافريز ، وما الشرفة الا حجارة مبنية فى أطراف أعالى السطوح ، كالاسنان المتفارقة ، لتكون سياجاً للسطوح . وممكنة للنظر من منفرجاتها ويزيد المتحرى تثبتاً لفهمه ، قصد ابن الرومى بالشرفات

المتوكل والله أعلم) . أخبرنا أبو يعلى أحمد بن عبد الواحد ... حدثنا على بن العباس النوبختى ، قال : بلغنى أن أبا الحسن على بن العباس بن جريج الرومى عليل ، فمضيت لأعوده ، (أو قال : جئت ابن الرومى ، فرأيته عليلا قبل موته بيوم [1]) فقلت له : أى شىء خبرك ؟ فقال : إيش خبر من يموت ؟ فقلت : كلا أرى سحنتك صافية حسنة ، فقال : هكذا من يموت يكون قبل ذاك حسن الوجه بيوم ، فقلت : يعافى الله ، فقال : خذ حديثى فان لم تقطع أن أموت فى هذه العلة فاصنع ما شئت ، أحببت أن أسكن فى مدينة أبى جعفر [2] فشاورت صديقاً لى يكنى « أبا الفضل »وهو مشتق من الافضال، فقال لى : إذا عبرت القنطرة ، فخذ على يدك اليمنى وهو مشتق من اليمن ، واسأل عن سكة النعيمية ، وهو مشتق من النعيم ، وعن دار ابن المعافى ، وهو مشتق من العافية ، فخالفت لشؤمى ، واقتراب أجلى ، فشاورت صديقاً يقال له « جعفر » ، وهو مشتق من الجوع والفرار ، فقال لى : إذا عبرت القنطرة ، فخذ يسرة ،وهو مشتق من العسر ، واسأل عن سكة العباسى ، وهو مشتق من العبوس ، واسكن فى دار قليب ، وهو مشتق من الانقلاب ، فقد انقلبت بى الدنيا كما ترى ، وأعظم ما على : يجتمع فى هذه السدرة فى دارى كل يوم العصافير يصيحون فى وجهى « سيق سيق » فأنا فى السياق ، فعاودته من الغد ، فإذا هو قد مات .

أخبرنا أحمد بن عمر بن روح ، ومحمد بن الحسين بن محمد النهروانيان ... حدثنا إبراهيم ابن محمد بن عرفة الأزدى [قال مصطفى جواد : هو المنبوز بنفطويه] قال : رأيت على بن العباس بن جريج الرومى يجود بنفسه ، فقلت له : ما حالك ؟ فأنشد :

غلط الطبيب علىَّ غلطة مورد عجزت موارده عن الاصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

أخبرنا الحسين بن على بن عبد الله المقرىء ... قالا : حدثنا أبو عثمان الناجم ، قال : دخلت على ابن الرومى فى اليوم الذى توفى فيه ، فلما قمت للانصراف ، قال لى :

أبا عثمان أنت حميد قومك وجودك للعشيرة دون لومك
تزود من أخيك فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك

أخبرنى التنوخى ، قال : قال المرزبانى : قيل إن ابن الرومى مات فى سنة ثلاث وثمانين ،

(١) يقول مصطفى جواد : وهذا هو الارجح لان النوبختى كان صديقه الادنى (٢) هي مدينة المنصور المستديرة ، التي سماها « دار السلام » كانت بالجانب الغربي من بغداد ، ولما نقل المعتصم منها دار الخلافة الى سامر أقل ساكنوها وأهمل شأنها . ولا نعرف من مواضعها اليوم الا مسجد العتيقة الذي بين بغداد والكاظمية وهو مسجد المنطقة

وقيل فى سنة أربع وثمانين ومائتين .(١)

وذكر ابن الرومى السيد محمد بن على الطباطبي المعروف بابن الطقطقى، قال فى ترجمة الوزير القاسم بن عبيد الله « وهو الذى قتل ابن الرومى بالسم ، وكان ابن الرومى منقطعاً إليهم يمدحهم ، وكانوا يقصرون فى حقه فى بعض الأوقات فهجاهم ، وكان هجاءًا (٢) »

وذكره شمس الدين بن خلكان (فى ما عدا ترجمته) غير مرة ، قال فى ترجمة أبى الطيب محمد بن المفضل الشافعى : « وكان المفضل المذكور متصلا بالوزير إسماعيل بن بلبل فقيل له : إن ابن الرومى (الشاعر المقدم ذكره) هجاه فشق ذلك على الوزير ، وحرم ابن الرومى عطاياه فعمل فى المفضل أبياتاً وهى :

لو تلففت فى كساء الكسائى وتفريت فروة الفراء
وتخللت بالخليل وأضحى سيبويه لديك رهن سباء
وتكونت من سواد أبى الأسود شخصاً يكنى با السوداء
لأبى الله أن يعدك أهل العلم إلا من جملة الأغبياء

وقال فى ترجمة أبى بكر محمد بن داود بن على بن خلف الأصفهانى : « وحكى أبو بكر عبد الله بن أبى الدنيا أنه حضر مجلس محمد المذكور ، قال : فجاءه رجل فوقف عليه ورفع له رقعة فأخذها وتأملها طويلا ، وظن تلامذته أنها مسألة ، ثم قلبها وكتب على ظهرها وردها إلى صاحبها ، فنظرنا فاذا الرجل على بن العباس المعروف بابن الرومى الشاعر المشهور ، وإذا فى الرقعة :

ياابن داود يافقيه العراق أفتنا فى قواتل الأحداق
هل عليهن فى الجروح قصاص أم مباح لها دم العشاق ؟

وإذا الجواب :

كيف نفتيكم بقتل صريع بسهام الفراق والاشتياق ؟
وقتيل التلاق أحسن حالا عند داود من قتيل الفراق

وقال فى ترجمة أبى على محمد بن على بن مقلة « وكان ابن الرومى الشاعر المتقدم الذكر يمدحه ، فمن معانيه الغريبة فيه قوله .

إن يخدم القلم السيف الذى خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لاشىء يعادله مازال يتبع مايجرى به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بريت أن السيوف لها مذ أرهفت خدم »

---

(١) تاريخ خطط بغداد ومن رآها للخطيب « ١٢ : ٢٣ الى ٢٥ »

(٢) الفخري ص ١٩١ من طبعة المطبعة الرحمانية ، وهى طبعة ممسوخة

وقال فى ترجمة أبى عبادة الوليد بن عبيد البحترى : « ولعمرى ما أنصفه ابن الرومى فى قوله :

والفتى البحترى يسرق ما قا   ل ابن أوس فى المدح والتشبيب
كل بيت له يجود معنا   ه فمعناه لابن أوس حبيب »

وقال فى ترجمة أبى عبد الله الحسين بن محمد البدرى الشاعر ، الأديب المعروف بالبارع البغدادى : « وهو من بيت الوزارة فإن جده القاسم كان وزير المعتضد والمكتفى بعده وهو الذى سم ابن الرومى الشاعر » (١)

وذكره أبو الفرج على(٢) بن الحسين الأصبهانى سنة « ٣١٣ » فى أخبار مقتل أبى الحسين يحيى بن يحيى الزيدى ، قال : « واتفق فى وقت مقتله عدة شعراء مجيدين للقول فى هذا المذهب ، إلا أنى ذكرت بعض ذلك كراهية الاطالة ، فمنه قول على بن العباس الرومى يرثيه ، (وهى من مختار مارثى به ، بل إن قلت إنها عين ذلك والمنظور إليه لم يكن مبعداً ، لولا أنه أفسدها بأن جاوز الحد وأغرق فى النزع وتعدى المقدار بسبب مواليه من بنى العباس ، وقوله فيهم من الباطل مالا يجوز لأحد أن يقوله)وهى :

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج   طريقان شتى مستقيم وأعوج
ألا أيهذا الناس طال ضريركم   بآل رسول الله فاخشوا أو ارتجوا
أفى كل يوم للنبى محمد   قتيل زكى بالدماء مضرج
تبيعون فيه الدين شر أئمة   فلله دين الله قد كاد يمزج
لقد ألحجوكم فى حبائل فتنة   وللملحجيكم فى الحبائل ألحج
بنى المصطفى كم يأكل الناس شلوكم   لبلواكم عما قليل مفرج
أما فيكم(٣) راع لحق نبيه   ولا خائف من ربه يتحرج
لقد عمهوا ماأنزل الله فيكم   كأن كتاب الله فيهم ممجمج
لقد خاب من أنساه منكم نصيبه   متاع من الدنيا قليل وزبرج
أبعد المكنى بالحسين شهيدكم   تضىء مصابيح السماء وتسرج

(١) الوفيات « ١ : ١٧٤ » و « ٢ : ٣٤و٥٣ و ١٧٥ و ٣٠٩ »

(٢) قلنا : قد أجمع المؤرخون الثقات على أن الأصبهانى أغفل ترجمة ابن الرومى في الأغانى لبغضه اياه . فإن ابن الرومى هجا أستاذه أبا الحسن على بن سليمان الأخفش . وسيمر فى مساق الخبر هذا بأنه أخذ عليه قبل ايراد مرثيته تنقصه لبنى العباس وتفجيره اياهم مما انتحالهما مذهباً واحداً .

(٣) كذا وردت في ص ٢٢٠ من « مقاتل الطالبيين » والظاهر أن الاصل « أما فيهم » وأراد بنى العباس وأعوانهم

لنا وعلينا لا عليه ولا له … تسحسح أسراب الدموع وتنشج
وكيف نبكى فائزاً عند ربه … له فى جنان الخلد عيش مخرفج
فان لا يكن حياً لدينا فانه … لدى الله حى فى الجنان مزوج
وقد نال فى الدنيا سناءًا ورفعة … وقام مقاماً لم يقمه مزلج
وكنا نرجيه لرفع عماية … بأمثاله أمثالها يتبلج
فساهمنا ذو العرش فى ابن نبيه … ففاز به والله أعلى وأفلج[1]
مضى ومضى الفراط من أهل بيته … يؤم بهم نحو المنية منهج
أبيت إذا نام الخلى كأنما … تبطن أجفانى سيال وعوسج
أ « يحيى » العلى لهفى لذكراك لهفة … يباشر مكواها الفؤاد فينضج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة … فتصبح فى أثوابها تتبرج
سلام وريحان وروح ورحمة … عليك وممدود من الأرض سجسج
ولا برح القاع الذى أنت جاره … يرف عليه الأقحوان المفلج
ويا أسفا أن لا ترد تحية … سوى أرج من طيب ومسك يأرج
أتمنعنى عينى عليك بعبرة … وأنت لأذيال الروامس مدرج
عفاء على دار ظعنت لغيرها … فليس بها للصالحين معرج
ألا أيها المستبشرون بيومه … أظلت عليكم غمة لا تفرج
أكلكم أمسى اطمأن مهاده … بأن رسول الله فى القبر مزعج
فلا تشمتوا وليخسأ المرء منكم … بوجه كأن اللون منه اليرندج
كذاك على فى المواطن قبله … أبو حسن والغض من حيث يخرج
تمدون فى طغيانكم وضلالكم … ويستدرج المغرور منكم فيدرج
أجنوا بنى العباس من شنآنكم … وشدوا على ما فى القباب وأشرجوا
وخلوا ولاة السوء منكم وغيهم … فأحرى بهم أن يغرقوا حيث لججوا
نداريكم أن يرجع الحق راجع … إلى أهله يوماً فتشجوا كما شجوا
على حين لا عذر لمعتذريكم … ولا لكم من حجة الله مخرج
فلا تلقحوا الآن الضغائن بينكم … وبينهم إن اللواقح تنتج

(١) هذا البيت شديد على الدين . فقد روى أن الامام علياً ــ ع ــ أنكر على أحد أصحابه قوله فى رجل توفاه الله « استأثر الله به » ، ولكن البيت يدل على شيعية ابن الرومي التى جهلها الاستاذ العقاد . وممن جاوز الحد فى هذه الأمور عبد الباقى العمرى شاعر زمانه في العراق فى العهد الاخير .

لعل لهم فى منطوى الغيب ثائراً　سيسمو لكم والليل فى الصبح مولج
بجر تضيق الأرض من زفراته　له زجل يفنى الوحوش ومهزج
توامضه شمس الضحى وكأنما　ترى البحر فى أعراضها يتموج
له رفدة بين السماء وبينه　يؤم بها الطير العوافى فتهزج
يود الذى لاقاه أن سلاحه　هنالك خلخال عليه ودملج
فيدرك ثأر الله أنصار دينه　ولله أوس آخرون وخزرج
ويقضى إمام الحق فيكم قضاءه　تماماً وما كل الحوامل تخرج
وقد كان فى يحيى مذ مر خطة　وناتجها لو كان فى الأمر منتج
أفى الحق أن يمسوا خماصاً وأنتم　يكاد أخوكم بطنه يتمعج
تمشون مختالين فى حجراتكم　ثقال الخطا أكفالكم تترجرج
وليدهم بادى الطوى ووليدكم　من الريف ريان العظام خدلج
ولم تضعوا حتى استثارت قبورهم　كلابكم منها بهيم وديزج

وهذه القصيدة « ١١٠ » أبيات اخترنا منها هذا القسم للجدال ولبيان بعض الأحوال؟

[بغداد]　　مصطفى جواد

اللغات الهندية

بقلم الأستاذ إحسان سامي حقى
أستاذ الأدب العربى بجامعة عليكرة [الهند]

قد يستغرب السامع لأول وهلة ، إذا ماقلت له إن فى الهند مايقرب من مائة لغة حية يتكلم بها فى مقاطعات أو ولايات مختلفة ! ولكن استغرابه هذا يزول إذا ما عاد وفكر فى الهند ، تلك البلاد الشاسعة غير الصغيرة ، بل القارة القائمة بذاتها ، وإن كانت تنضوى تحت اسم واحد . وإن أوروبا التى لاتزيد كثيراً عنها فى المساحة ، فيها من اللغات مايقارب الأربعين ، وكلها قائمة بذاتها ، ولكن الفرق أننا اذا ماقلنا أوربا فاننا نفهم منها : فرانسا والمانيا ورومانيا أوأسبانيا وغيرها من الحكومات الكثيرة ، وأما اذا ماقلنا الهند ، فانما نفهم منها حكومة واحدة ؛ على أن الأمر غير ذلك أو أن ماينطبق على أوربا فى هذا الباب ينطبق تمام الانطباق على الهند ، لأنها وإن كانت تعد بلاداً واحدة ، فهى بما فيها من فواصل طبيعية وأجواء مختلفة تكاد تكون منفصلة الأجزاء ، ولو شئنا تعرف تقسيمها ، كما هى أوربا مقسمة ، لاستطعنا أن نقول : البنجاب ،

والبنغال ، والولايات المتحدة ، والسند وغيرها ، ونعني بكل واحدة من هذه الولايات أو الايالات حكومة مستقلة كما هي الحال في أوربا .

ولكن مع هذا كله نرى أن اللغات الهندية أكثر من الأوروبية ! والسبب في ذلك يرجع أولا الى أن الهند أقدم في الاكتشاف وأعرق في الحضارة من أوربا ، وثانياً لأن لغاتها مأخوذة عن أصول مختلفة ، بعكس اللغات الأوربية فانها ترجع إلى أصل واحد فقط . واللغات الهندية كلها حية مستعملة ، غير أن بعضها أعم من البعض وأغزر في أدبه ومادته . وعلى مايظهر من التحري والتحقيق في هذا الشأن رغم بعد الزمان ، هو أن اللغة السنسكريتية كانت في وقت ما لغة معظم الهند ، لأنها لغة كتاب الوثنيين المقدس ، إلا أن هذه اللغة الآن قد قاربت أن تكون في الهند كاللغة اللاتينية القديمة في أوربا ، حيث تقام بها الصلوات في البيع ولا يفهمها أحد ؛ وهي لغة واسعة جداً إلا أنها صعبة للغاية ، حتى إنه قل من يوجد في الهند ومن يحسنها أو يتقنها ، وإنما علماؤها يعدون على الأصابع ؛ وغيرهم ممن يعلمها أو يدعي علمها إنما هم من المتطفلين لاغير ، أو هم أشبه في حالهم هذه بحال العربي الأمي الذي يستطيع أن يتكلم العربية ويفهمها ، ولكنه لايستطيع أن يفهم كتاباً مكتوباً باللغة الفصيحة ، أو أن يكتب بلغة صحيحة . وقد أحببت مرة أن أدرسها فطلبت إلى أحداً لأساتذة ذلك ، فقال لي : وماذا تبتغي من تعلم هذه اللغة ؟ : قلت لكي أدرس آدابها ، فقال لي : إني قد صرفت عمري وأنا أدرس وأدرس هذه اللغة ، ولم أصل إلى الدرجة التي تريدها أنت ! وقد ذكرني قوله هذا بحكاية لطيفة جرت لأحد الأصدقاء وهي أنه اجتمع مرة برجل صيني وسأله ، فيما سأله ، عن اللغة الصينية فقال له الصيني : إن لغتنا لغة سهلة جداً يمكنك أن تتعلمها بعد عشر سنوات على الأقل !

إلا أنه مما لا يمكن إنكاره ، أن اللغة السنسكريتية لغة واسعة جداً ، ذات أدب جم وفلسفة كاملة ، وهي أشبه اللغات باللغة العربية ، كما رأيت من مطالعتي لما ترجم عنها أو ما اتصل بها وقرب من اللغات التي أعرفها .

ثم تأتي بعد هذه اللغة ، اللغة البنغالية ؛ وهي الآن من لغات الهند الحية ذات الأدب الواسع ، ويتكلم بها ما لا يقل عن عشرة ملايين من البشر ، وتصدر بها عدة جرائد ومجلات ، وتدرس في المدارس كلغة حية . وتأتي بعد هذه ، اللغة البنجابية ، وهي لا تقل عن البنغالية شيئاً ، بل تزيد ، ويحميها الآن شعب بكامله ، وهو جماعة «السيخ» لأنها لغة كتابهم المقدس ، وهي مستعملة بكثرة في البنجاب خصوصاً ، وفي مايجاورها من البلاد ؛

وهناك أيضاً تلك اللغة القديمة التي لايشوبها لفظ عربي ، ولا فارسي ، ولا انكليزي ، وتسمى الكرمكية ، حروفها أشبه بالحروف السنسكريتية .

وهناك لغة ثانية ، هي المشوبة بألفاظ من هذه اللغات ، وحروفها عربية

أما اللغة الأولى فهي لغة غير المسلمين ، وأما الثانية فهي لغة المسلمين . وبعد البنجابية تأتي اللغة السندية ، وهي لغة أهل السند فقط ، وليست راقية كغيرها . وهناك اللغة الكجرانية

وهى تستعمل فى ضواحى بمباى . واللغة التاملية ، وهى تستعمل فى ضواحى مدراس ، وهنالك البلوجية، والبشتوية ، والكشميرية ، والمدرانية ، والفارسيه وغيرها؛ وكلها من اللغات الحية التى يتكلم بها ملايين من الخلق .

ومع كل هذا ، فان للهند لغة واحدة يستطيع من يتعلمها أن يتفاهم مع كل طبقات الناس، بتفاوت بسيط فى طول الهند وعرضها ، وهذه اللغة هى اللغة الهندية ، وتقسم إلى قسمين: قسم يعرف بهذا الاسم ، وهو لغة قديمة جداً ، مأخوذة عن السنسكريتية ، بألفاظها وحروفها واصطلاحاتها ، مع مزيج من لغات هندية أخرى ، تكاد تكون لغة الولايات المتحدة الهندية الرسمية ،وهى ذات أدب كبير واسع ، وتدرس فى كل المدارس، وأما القسم الثانى ، ويعرف باسم اللغة الأوردية ، فهو لغة جديدة من موجدات المسلمين فى الهند .

وذلك أن الحكومة المغولية بعد فتحها للهند ، رأت تسهيلا على جنودها ، أن توجد لهم لغة ، فأوجدت هذه اللغة التى هى عبارة عن خليط من اللغات الهندية والفارسية والعربية ، وأسمتها بهذا الاسم ، ومعناه « الجيش » ، وقد يمكن أن تكون هذه اللغة أوجدت نفسها بنفسها ، بأن تعلم الجند شيئاً من اللغة الهندية ، وجعلوا يستعينون بلغتهم تارة ، وبالعربية — التى كانت قد استحكمت بهم — تارة أخرى ، فتولد عن ذلك هذه اللغة التى نمت نمواً لم يكن منتظراً ، وأصبحت الآن ذات أدب عال . والسبب فى ترقى هذه اللغة ، هو أنها أخذت من السنسكريتية فلسفة ، ومن الهندية أدباً ، ومن الفارسية ليناً ، ومن العربية سعة .

وبعد احتلال الانكليز للهند أخذت من اللغة الانكليزية ألفاظاً ، فأصبحت تمثل خمس لغات فى وقت واحد ؛ وهى تكتب بالحروف العربية أو الفارسية، غير أنه لما كانت حروف هجائها تزيد على غيرها عدة أحرف ، وضع لها الواضعون إشارات تميزها تمييزاً ظاهراً لا يدع مجالا للشك ، فمثلا جعلوا فوق (الراء) العربية (طاء) صغيرة ، لتدل على أنها سنسكريتية، حيث يختلف أداؤها من الحلق عن العربية ، وهكذا وضعوا (طاء) فوق الدال العربية ، وهجروا من الاشارات الحسنة المميزة ، وقد تداخلت فيها اللغة الانكليزية تداخلا مسخها مسخاً، حيث أصبح لا يستطيع من لا يعرف الانكليزية أن يفهمها كما يجب ، بل قد يتعذر عليه أحيانا أن يفهم جملا بأكملها ، لأنها تكون إنكليزية ، موصولة بقواعد إضافية أو نسبية هندية لاغير؛ وعلى كل حال فان هذه اللغة الجديدة ، قد اكتسحت اللغات الهندية جميعها وقامت مقامها ، لدرجة أن الانسان يرى من يتكلم بها فى كل بقعة من بقاع الهند .

ولم يفدنى أثناء سياحتى وتجوالى فى البلاد الهندية سنة ١٩٣٠ ، ما أعرف من اللغات الهندية وغير الهندية، ولا الانكليزية نفسها ، كما أفادتنى هذه اللغة التى، يعنى المسلمون بها أكثر من غيرهم ؛ لأنها أصبحت كلغة شبيهة بالدينية لديهم، لأن أكثر كتب الحديث ترجم اليها، وكذلك كتب الفقه فان أكثرها إما عربية أو أردية ، كما أن القرآن الكريم قد ترجم إليها عدة تراجم مختلفة؟

[عليكرة . الهند] إحسان سامى حقى

البول السكرى

وعلاجه بالتدبير الغذائى

للدكتور محمود فريد
الأخصائى فى الأمراض الباطنية والأشعة

البول السكرى من الأمراض الشائعة ، يعرفه الخاص والعام ، وقلما ينجو من الإصابة به الموسرون وأصحاب المناصب العالية ؛ وهو من أقدم الأمراض التى وصل إلينا علمنا ، وقد كتب عنه الهنود الأقدمون ؛ وفى المؤلفات اليونانية والرومانيـة القديمة فصول طويلة وصفت فيها بغاية الدقة الأعراض المرضية لهذا الداء ؛ إلا أن أول من كشف عن هذا المرض فى العصور الحديثة ، هو الطبيب الانكليزى (توما) عام ١٦٧٤م ، فقد ذاق فى بول المصابين بالسكر مصادفة طعم السكر ، وأثبت غيره وجود السكر فى البول بتخميره ، وآخرون بتبخيره . ويرجع جل مانعرفه اليوم عن مرض السكر للعلامة (كلود برنارد) ، فقد تم له اكتشاف النقطة السكرية فى المخ ـ وهى التى إذا أصابها شك دبوس مثلاً انفرز السكر حالاً فى البول ، وازدادت كمية السكر فى الدم ـ وتعرف هذه النقطة بنقطة الشكة السكرية ؛ وهو أول من أثبت أن سكر الدم ينشأ عن السكر المخزون فى الكبد المعروف (بالجليكوجين) ـ وهو سكر العنب ـ وأثبت العالمان الألمانيان (فون مترنخ) و (متكوفسكى) ظهور مرض السكر عقب استئصال غدة البنكرياس ـ وهى الغدة اللعابية الباطنية ، الواقعة فى الجزء الأيسر من البطن خلف المعدة ـ . واليوم تم استكشاف مرض سكر (الأنسولين) ـ وهو الإفراز الداخلى لغـدة البنكرياس ـ الذى تم استحضاره لكل من : (بابنج) و (بابست) و (كوليب) من تلك الغدة عام ١٩٢٢ م .

وخلاصة ما نفهمه اليوم عن هذا المرض أنه عبارة عن اختلال فى الاستحالة الغـذائية ، يعرف بافراز السكر فى البول ، وازدياد كمية السكر فى الدم ؛ فترى المصاب به إذا تناول فى طعامه أية كمية من المواد النشوية أو السكرية ـ مهما كانت قليلة ـ ازداد سكر الدم ، ثم انفرز السكر فى البول ؛ وقد اختلف المؤلفون فى منشئه : فمن قائل إنه مسبب عن كثرة تكون السكر فى الكبد . وقد يعلم القارىء أن من وظائف الكبد تحويل المواد الكاربوايدراتية (النشوية والسكرية) ، بواسطة إفرازات البنكرياس ، وكذلك تحويل المواد السكرية كثيرة التعقيد ، كسكر القصب مثلا ، إلى مادة سكرية بسيطة التركيب هى (الجليكوجين) أو سكر العنب ، وتخزينه داخله ليكون

بمثابة الفحم للقاطرة ، يصرف منه للجسم على قدر حاجته منه ؛ فان ازدادت الكميات المخزونة منه فى الكبد زيادة كبيرة فوق حاجة الجسم ، انفرزت منه كميات وافرة حتى تتشبع الأنسجة بالسكر . ويرى آخرون أن ظهور المرض يرجع لسوء احتراق المواد السكرية فى الجسم ؛ ويرى غيرهم أنه يرجع للسببين الآنفى الذكر معاً ، والنتيجة ـ على كل حال ـ أنه مسبب عن تشبع الأنسجة بالسكر . وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن مرض السكر لا ينشأ فقط عن اختلال الاستحالة الغذائيـة للمواد الكاربوايدراتية ، بل المواد الزلالية والدهنية أيضاً ؛ بل إن هـذا المرض يظهر لأى اختلال يطرأ على الجسم ؛ فنراه يظهر فى اختلال الغدد ذات الإفراز الداخلى ـ المعروفة بالغدد الصماء ـ إذا أصابتها التغيرات المرضية ، وهذه الغدد متفرقة فى الجسم ولها إفرازات داخلية تصل للجسم بواسطة الامتصاص ، بمعنى أنه ليس لها مجرى خارجى تنصرف منه إفرازاتها ، كما هى الحال فى الصفراء التى تصب إفرازاتها فى القنوات الصفراوية ، وهذه بدورها تصبها فى الأمعاء ، عاملة على هضم المواد الدهنية ، وهنالك أيضاً غـدد صماء فى قاعدة المخ ، فاذا أصاب أحد فصيصاتها تضخم ، أصيب صاحبها بمرض (المردة) ، فتتضخم العظام وتطول ويفرز السكر فى البول . ونشاهد إفراز السكر فى البول فى أمراض الغـدة « فوق الـكلى » ؛ وهى من الغدد الصماء كذلك ، فاذا أصابها تضخم ، زاد إفرازها الداخلى وهو (الادرينالين) الذى له خاصية دفع الدم ، وتضييق الأوعية الدموية فى حالة النساء ، فانه يؤثر فى الرحم حتى تنقبض عضلاته ؛ وهو مضاد (للأنسولين) ، وهو الافراز الداخلى (للبنكرياس) الذى يتم به احتراق السكر ؛ وعند نقصه يقل الاحتراق فيشحن الدم بالسكر ويفرز السكر فى البول .

كما أننا نشاهد إفراز السكر فى البول فى أمراض الغدة الدرقية ـ التى مركزها الرقبة ـ وتقع تحت الحنجرة حول القصبة الهوائية ؛ كما أننا نشاهد ظهور السكر فى البول ، فى أمراض البنكرياس والكبد ؛ بل نراه يظهر أثر الصدمات العصبية والانفعالات النفسية ، كالحزن والجزع ... الخ . ومن هنا فان البعض يقول بأن الضعف العصبى قد يؤدى إلى مرض السكر .

ويصاب بعض الأفراد بالبول السكرى عن طريق الوراثة ، وذلك فى حالة إصابة أحد الوالدين أو كلاهما بالمرض أثناء ولادة الطفل ؛ وربما كانت وراثة هذا المرض فى أسرة بأسرها . ولقد يكون أحد الزوجين مصاباً بهذا المرض ثم لا تلبث أعراض الاصابة بعدئذ حتى تظهر على السليم منهما ، حتى لقد يتطرق للفكر أنه أصيب بطريق العدوى ؛ وقد قال بعض المؤلفين بهذا الرأى ، لـكنه رأى ضعيف لم يقل به جمهور المؤلفين ، ولا ينطبق على ما نعرفه شخصياً من الأصل فى تكوين هذا المرض الذى ينتج عن اختلال الاستحالة الغذائية ، التى هى أهم العوامل فى ظهور هذا الداء ، والتى تنطبق تماماً على المشاهدات الاكلينيكية ، وما يقع منها يومياً من الحوادث تحت أنظارنا .

وفى بعض الأحوال ترجع الاصابة بهذا المرض لاستعداد خاص فى البنية ؛ مثلا تجده شائعاً بين الناس السمان، الذين إذا تتبعنا تاريخهم رأينا بعضهم ينشأ فى عائلات يفشو فيها مرضا السكر والنقرس، اللذين ينشآن من اختلال الاستحاله الغذائية ، ومن هنا فان لهما علاقات وثيقة ، تؤيد نظرية الاستحالة الغذائية أيضاً، ونرى هذين المرضين منتشرين عادة بين الاغنياء والموسرين، الذين كثيراً ما يسرفون فى طعامهم وشرابهم ، حتى لقد عرف مرض النقرس بداء الملوك ؛ كما نراه فاشياً بنوع خاص عند المفرطين فى أكل الحلوى ، وعند الذين لا يعرفون نظاماً خاصاً فى غذائهم، فتراهم يأكلون كل ما تصل إليه أفواههم ، وكأنهم لا يعرفون شيئاً عن القاعدة الذهبية : « يأكل العالم ليعيش، ويعيش الجاهل ليأكل » ، ونسوا أنه يجب الاعتدال فى المأكل والمشرب، وأننا لو عملنا بالحكمة الغالية : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع » ، ما كان لتلك الأمراض المنتشرة ــ أمراض الاستحالة الغذائية ــ من أثر يذكر بين ظهرانينا ؛ ولو عرف الناس عاقبة الاسراف فى المأكل والمشرب ، وما يترتب عليه من إصابة الجسم بأمراض وخيمة العاقبة ، لساروا فيما يتناولون من المأكل والمشرب بحكمة واعتدال تامين .

قصدنى للاستشارة مرة ، رجل بدين تبدو عليه علامات الصحة والعافية ! جاء يشكو كثرة العطش وكثرة إدرار البول، مع جفاف فى الريق، ثم قال لى ــ ضمن ما قال ــ : إنه اعتاد أن يتناول خمس عشرة كوبة من العرقسوس فى حر الصيف، ليستطيع تأدية عمله فى المطبعة، فكان من جراء ذلك أن أصيب بمرض السكر . ويقينى أن مرض السكر المنتشر فى هذه البلاد، لا يرجع إلا إلى إسراف فى المأكل والمشرب ، وخصوصاً فى الأطعمة النشوية والحلوى ؛ ولذلك نرى المرض فى سيره، وطرق علاجه ــ على وجه العموم ــ يختلف اختلافاً بيننا عن صورة المرض فى أوربا، وكذلك يختلف فى طرق العلاج. حقاً أن هذا المرض يتسبب فى أوروبا من إصابة جزء (لانجهانس) الواقع فى غدة البنكرياس، إصابة تقلل من إفرازها الداخلى وهو (الأنسولين) الذى تتم به عملية احتراق السكر ــ سكر العنب ــ المخزون فى الكبد ، إلا أن هذا النوع لا يكون بين ظهرانينا إلا من المضاعفات المرضية ؛ وإنما النوع المنتشر بيننا ــ وربما فى البلاد الشرقية عموماً والقريبة خصوصاً ــ هو من النوع الغذائى ، أى الذى ينشأ عن اختلال الاستحالة الغذائية ؛ ولذلك كان الواجب يقضى على مصلحة الصحة العمومية بتعميم الإرشادات والتعاليم الصحية بين الجماهير ، التى تبين لهم أسباب المرض وطرق الوقاية منه ؛ وقد ضج الناس من فتك هذا المرض بهم ، حتى كتبوا على صفحات الجرائد يطالبون بدعاية صحية منظمة ، لارشاد الناس وإفهامهم ما هو ضار بهم ومؤذ صحتهم.

على أن لمرض الزهرى أثراً هاماً فى هذا المرض ، فاذا تبين للطبيب ــ عند فحص المريض ــ إصابته بالزهرى، أو اشتبه فى حالة المريض ، يجب اتخاذ العلاج الفعال ضد المرض الأصلى ــ وهو

الزهرى ـ دون توان ، لأنه السبب الأصلى للمرض ، وهذا النوع يخالف مانكتب عنه الآن .

وتقع الاصابة بمرض السكر بين سن الثلاثين والستين من عمر الانسان، وقد تظهر قبل ذلك ؛ فقد شاهدته فى فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، وقد عولجت منه وشفيت ؛ إلا أن هذا المرض أخطر على الشباب منه على الكهول والشيوخ ، وتقل خطورته عند الشيوخ ؛ وإصابة الرجال به أكثر من إصابة النساء، اللاتى يكن أكثر عرضة للاصابة به وقت العادة ، فليحرصن فى طعامهن ، فى هذا الوقت على وجه الخصوص ، حتى لا يبدأ سير المرض حثيثاً فى بادىء الأمر، فتنفرز كميات يسيرة من السكر فى البول دون أن يسترعى ذلك خاطر المريض ، أى دون أن يكون مقلقاً له، ثم يكتشف المرض بالصدفة ـ عند تحليل البول ـ أو يترك المرض وشأنه فتشتد الأعراض حتى تسوء الحال فيضطر المريض اضطراراً إلى الاستشارة الطبية ؛ وأول مايظهر من علامات المرض ، النقص المستمر فى الوزن حتى تصبح الملابس واسعة ، ويصحب هذا انحطاط فى القوة وفتور، ويقل النشاط فيصير المريض متعباً على العمل، وقلما تتأثر الصحة العامة فى بدء المرض، وقد لا يستشعر المريض سوى حكة مقلقة فى أعضاء التناسل أو يصاب بمرض جلدى ـ اكزيما قوية ـ أو تصيب الاسنان مدة فتتخلخل ثم تسقط، أو يصاب بالدمامل أو الخراريج أو الجمرة، أو يصاب بآلام عصبية حادة تفشل فيها كل محاولة علاجية ، أو يصاب بالتهاب فى الأذن الوسطى لا يشفى ؛ أما إذا اشتدت أعراض المرض ، فان المريض يشعر بعطش شديد ، ويصاب « بالجوع الكاذب » حتى يصير نهماً ، ويشتد إدرار البول ، ويأخذ المريض فى النحافة رغم حسن التغذية ـ ولو كان فى أصله بديناً ـ ؛ فقد شاهدت بعض السيدات كان وزنهن لايقل عن ٩٥ كيلو جراماً فأصبحن لايزن أكثر من ٥٠ كيلو جراماً بعد إصابتهن بالمرض. ويكون البول رائقاً، ويترك بقعاً بيضاء فى الملابس ؛ وتتراوح الكمية المفرزة منه مابين لترين ، وأربعة ألتار ، إلا فى بعض الحالات الشاذة ،فقد وجد أن معدل مريض بلغت كمية بوله ـ فى ٢٤ ساعة ـ ١٠ ألتار ؛ وشاهد بعض المؤلفين أكثر من ذلك : ١٥ و ٢٠ لتراً فى البول فى خلال الـ ٢٤ ساعة ؛ أما الكمية التى تفرز من السكر فى البول فتتراوح بين ٣٠٠ و ٥٠٠ جرام ؛ وقد شاهدت مريضاً يفرز فى اليوم ٦٠٠ جرام من السكر ،وهى كمية كبيرة لا يستهان بها من غير شك !

وتظهر مضاعفات المرض على أعضاء مختلفة ،فيصير الجلد جافاً، خصوصاً فى الأعضاء التناسلية الظاهرة من المرأة ؛ وشاهدت حالة انتفخ فيها جلد الوجه والأجفان واحمر ، واشتدت حكة مقلقة حرمت المريض لذة العيش والمنام ؛ ويصاب الجلد بالدمامل والخراجات ، وتتقيح الغدد الليمفاوية ، وتصاب الأطراف بالغنغرينة الجافة ، وخاصة الأصبع الأكبر فى القدم ؛ أما الأسنان فيصيبها السوس ، وتصاب اللثة بالتقيح ، فترى الأسنان تتخلخل وتسقط .

والسل الرئوى هو أحد مضاعفات هذا المرض ، ويصيب نحو ٥٠ فى المائة من مجموع الاصابات ، ويظهر أنه يصيب من تهاون فى أمره ، وأطلق لشهواته العنان فى المأكل والمشرب ، واكتفى من العلاج بالوصفات البلدية - كمسحوق الحلبة ، والترمس - . وقد أظهرت التجارب العديدة أن هذه الأعشاب والمركبات - على اختلافها وتباين أصنافها - لا تزيل مرض السكر بتاتاً ، كما ظهر من أبحاث المؤتمر الطبى الأخير ، الذى كانت هذه الوصفات أحد موضوعاته الكبيرة الموضوعة على بساط البحث . وعلى الرغم من أن البول السكرى هو أحد أمراض الاستحالة الغذائية ، ترى الشائع بين العامة أن المريض به ، يحتاج «للتغذية الكبيرة» ، أى أنه يقع فريسة « الجوع الكاذب » أو « الكلبى » - كما يسميه البعض فى الاصطلاح - فسرعان ما تزداد حالتهم من سيىء إلى أسوأ ؛ بل نرى - وهذا من الغرابة بمكان - أن بعض الناس يصفون عسل النحل ، ويزعمون أنه شاف لهذا المرض ، والواقع أن عسل النحل يحتوى على ٨٠ فى المائة من السكر الخالص ؛ وقد اتفق أن تناوله أحد مرضاى - أخيراً - بعد أن كان من الشفاء قاب قوسين أو أدنى ، فظهر السكر فى بوله فجأة ؛ ومن حيث مرض السل فإنه يبدأ بسيطاً ، ويظهر بشكل نزلة شعبية بريئة ، تخفى وراءها مرض السل المزعج ؛ فاذا لم يوفق الطبيب فى التشخيص ، لا يلبث المريض حتى تظهر عليه العلامات الأكلينكية لهذا المرض الخبيث ، وعندها يعز الدواء ويستعصى الشفاء .

أجل ، يجب على كل من خامره أقل شك فى إمكان إصابته فى الرئة ، المبادرة بغير توان للعلاج . وتجب العناية التامة بالمريض إذا اشتدت الاصابة ، كما يجب اتخاذ الاحتياطات الصحية كلها . صادفتنى سيدة مريضة بالبول السكرى ، وأخبرتنى - ضمن ما أخبرتنى - أنها تسعل من بضع شهور ، فلما فحصتها اشتبهت فى أمرها ، ففحصتها بالأشعة ، وكرر البصاق ، فطابق التشخيص الاكلينيكى فحص الأشعة ، وأثبت فحص المعمل للبصاق وجود ميكروب « كوخ » ، فماذا صنعت ؟

لم يتجه نظرى ، إلا لمعالجة المرض الأساسى ، وهو البول السكرى ، مع مراعاة الأحوال الصحية العامة المناسبة لمرض الرئة ، فما انتظم لها علاج السكر ، حتى قل السعال ، واطردت حال المريضة فى التحسن ، دون أن أعطيها أدوية طاردة للبلغم ، اللهم إلا بعض أدوية مسكنة عند اللزوم .

ومن هنا تظهر أهمية علاج المرض الأصلى عند ظهور المضاعفات ، فلقد رأيناها فى مختلف الحالات تتراجع الى الوراء بسرعة وبخطوات واسعة .

ومن مضاعفات البول السكرى أن يصيب القلب ضعف ينتج عنه تضخمه وتصلب الشرايين . وقد يصاب المريض بالذبحة الصدرية أو بالربو (ضيق التنفس) ، الناشىء عن ضعف القلب ، وقد يرتفع الضغط الدموى .

أما المعدة والأمعاء فقلما تصاب بمضاعفات المرض ؛ إلا أننا نرى عدداً كبيراً من مرضى البول السكرى يصابون بالامساك ، الذى ينشأ عن جفاف الأنسجة ، بسبب إفراز كميات كبيرة من

مائية الجسم فى البول. وقد يصيب المعدة عسر الهضم ، وقد تحدث اضطرابات فى الكبد أو حصوات فى المرارة .

والكلى خطرة التأثر بمرض السكر ، وإصابتها من أكبر المضاعفات وأخطرها. فنرى الزلال يظهر بكثرة فى البول ، ويظهر من الفحص المكرسكوبى وجود الاسطوانات ، وظهور خلايا المدة بكثرة ، وكلما اشتدت الاصابة ، زادت الحالة سوءاً ، حتى يخشى منها على حياة المريض .

ومن مضاعفات البول السكرى نزول البول بدون إرادة ، خصوصاً فى الليل ، وينشأ هذا عن التهاب مثانى ، غير مكروبى ، بفعل البول المتشبع بالسكر على جدر المثانة .

وتظهر مضاعفات الاصابة بالبول السكرى على الأعضاء التناسلية ، فانه يؤثر فى الخصيتين ، حتى لقد يصاب الرجال بالارتخاء ، وربما كانت هذه أولى ظاهرات مرض السكر التى تحدو بالمريض إلى الاسراع باستشارة الطبيب . وكم من مريض قصدنى عقب ظهور هذه الظاهرة ، فلما فحصته ، اكتشفت عنده مرض البول السكرى ، بعد تحليل البول ، ومن هنا فان العالمين الألمانيين (فون نوردن) (ولا يسحق) الاخصائيين فى أمراض الاستحالة الغذائية ، يريان أن يمنع من الزواج كل رجل يثبت أنه مصاب بمرض البول السكرى ، وخاصة فى الحالات الشديدة .

ومن ناحية المرأة ، فان أعضاءها التناسلية تتأثر بهذا المرض ، فتقل شهوتها عند الجماع ، وتنقطع عنها العادة الشهرية فى سن مبكرة ، بل كثيراً ما تصاب بالعقم ، من جراء الاصابة بهذا المرض .

صادفتنى سيدة من كرام العائلات ، مصابة بالسكر بدرجة متوسطة ، اتفق لها أن حملت ، إلا أن الجنين نزل — عند الولادة — ميتاً منتفخاً ، وخيف على صحة تلك السيدة .

ثم إن خطر مرض السكر ليس بقاصر على الجنين فحسب ، بل إنه يصيب الوالدة نفسها منه الشيء الكثير ، فقد تنتابها من مضاعفات هذا المرض «حمى النفاس» فتعرض حياتها لخطر محقق ، و ٣٠ فى المائة من أولئك الوالدات يرحن ضحية هذا المرض . وظهور الآلام العصبية المختلفة هو من مضاعفات مرض البول السكرى . وقد تكون الآلام العصبية على اختلاف أنواعها مقدمة لمرض السكر .

ومن مضاعفات السكر فى العينين ، شلل الأجفان ، وفى بعض الأحيان ، احليلاك العدسة . ولقد تشتد الاصابة ، فيفقد المريض حاسة الابصار فجأة . وقد يشتد تأثير هذا المرض فى الجهاز العصبى ، حتى لقد يؤدى إلى رخاوة المخ أو إلى النزيف المخى - المعروف بالفالج - . وقد تتسبب أيضاً عن اشتداد وطأته ، آلام فى الرأس ، بل لقد يؤدى أحيانا إلى البلاهة ، وربما تنزل عقلية المصاب به إلى عقلية الطفل الصغير .

العلاج

كان العلاج الشائع فى أمريكا منذ بضع سنين قلائل ، شديد الوطأة، صعب الاحتمال ، فكان عبارة عن سلسلة صيام طويلة، يعانى المريض فى غضونه شدة الجوع ومضض آلامه، وكان المريض الاوربى يحرم من تناول المواد الكاربوايدراتية ، حتى ظهرت على بعضهم علامات التسمم بالحموضة (اسيهتون) ، فاضطر الأطباء إلى السماح للمرضى بتناول الشعير، والانعكاف على أكله. ثم أجازوا أكل الحبوب والبقول بل الأرز أيضاً ، فسرعان ما شاهدوا تحسناً يذكر فى صحة أولئك المرضى ، فشاع هذا النظام الغذائى فى علاج «البول السكرى» ، دون أن يبنى هذا العلاج على قاعدة صحيحة ، حتى جاء (كوليب) - وهو أحد المكتشفين (للأنسولين) - فتم له استخراج مادة من القمح والشعير وبعض البقول والخضر والحشائش سماها (جليكوكنين) تشبه فى مفعولها (الأنسولين) ، إذا أخذت من طريق الفم ، قللت إفراز السكر فى البول ، وقللت زيادة سكر الدم ، ومفعولها مماثل (للأنسولين) إلا أنها أقل تأثيراً منه .

ثم كانت القاعدة العامة المتبعة فى غذاء مرضى البول السكرى ، السماح لهم بتناول المواد الدهنية بدلا من المواد الكاربوايدراتية ، حتى لقد كان جل طعام هؤلاء المرضى - منذ بضع سنين قلائل - يتكون من المواد الزلالية والدهنية فقط ، ولا يسمح لهم بتناول المواد الكاربوايدراتية إلا بقدر يسير يستطيع الجسم هضمه دون ظهور السكر فى البول ، فكان المريض لا يظهر فى بوله سكر إلا عند تناوله ما يزيد على هذا القدر المعين ، ولو زيادة طفيفة .

إلا أن الأبحاث التى أجراها العالمان النمساويان (ادلزبرخ) و (بورجس) أخذت تزلزل أقدام هذه النظرية ، بل لقد قلبتها رأساً على عقب ، فقد أثبت هذان الباحثان أن المواد الدهنية تقلل من قوة الجسم لهضم المواد الكاربوايدراتية ، بخلاف امتصاص المواد الدهنية وزيادة المواد الكاربوايدراتية فى طعام المريض ، فانها تزيد القابلية لهضم هذه المواد . وقد أخذ الأمريكيون بهذه النظرية وتقدموا بها تقدماً كبيراً ساعدها على انتشارها فى سائر البلدان .

وقد تمكن كاتب هذا البحث بالتدبير الغذائى وحده ، دون الالتجاء لأى علاج آخر من العلاجات والادوية ، من شفاء الحالات البسيطة ، والمتوسطة أيضاً ، وأصبت فى هذا نجاحاً يذكر ، مضى على شفاء بعض الحالات ما يزيد على خمس سنوات ، دون أن يعاود أصحابها ظهور السكر فى البول . وقد عرضت طائفة من مشاهداتى الخاصة على المؤتمر الطبى الخامس ، الذى عقد فى القاهرة فى أوائل ابريل الماضى ، ونشر البحث فى المجلة الطبية المصرية بعددها الصادر فى شهر يوليه من هذه السنة ، فليراجعها من شاء التوسع فى هذا الباب . وطريقتى فى العلاج مبنية على أبسط الأنظمة الطبيعية ، فجل ما أرمى إليه هو تمرين الجسم وتدريبه لاعادة القابلية لهضم المواد الكاربوايدراتية ، وتنظيم حركة الهضم حتى تزول اضطرابات الاستحالة الغذائية ، مع اتباع المرضى للقوانين الصحية ، والاعتدال فى المعيشة والمأكل والمشرب .

دكتور محمود فريد

قصة مصرية

حلم وانقضى

بقلم الاستاذ محمود بك تيمور

(من كتاب أبو على عامل أرتست تحت الطبع)

— ١ —

محمد أفندى العتر ، وكيل البوسته ببلدة الكوامل ، شاب أوفى على الأربعين . تعين فى وظيفته هذه منذ عشرة أعوام ، لم ينتقل فى أثنائها من البلدة ؛ وكان قبلا موظفاً صغيراً فى دور البريد الكبرى فى عواصم المديريات . وبلدة الكوامل ، أو بالأحرى محطة الكوامل ، بلدة صغيرة من بلاد الأرياف لا يقف عليها إلا قطاران من الركاب وبعض قطارات من البضاعة . ومحمد افندى العتر يعيش عيشه مملة فى حجرة دار البريد ، يساعده غلام صغير يدعوه محمد أفندى « بالمراسلة » ؛ ففى أوقات العمل يرى وكيل البوسته جالساً فى دار البريد سهتاج الخاطر ، يسب غلامه ، ويرمى بالخطابات والطرود يميناً وشمالا ، وهو ينفخ ويزمجر ، لاعناً الساعة التى أتى فيها إلى هذه البلدة الحقيرة المهجورة ، حتى إذا مل شتم غلامه بدأ يشتم الفلاحين وينعتهم بأقبح النعوت ؛ فاذا مل شتمهم جعل يشتم نفسه ، واصفا إياها بالجبن والكسل والاستسلام ؛ وعندما ينتهى من عمله الرسمى ، يخرج إلى قهوة « مانولى » بجلبابه القذر وجاكتته الصفراء الكالحة ذات الأزرار النحاسية ، وطربوشه منحدر إلى الوراء تاركا شعره المنفوش مبعثراً على قمة رأسه ، يجر فى قدميه شبشباً أملس بلا كعب ؛ فاذا ما استقر فى القهوة جاءه « مانولى » بالشيشة وفنجال القهوة وإحدى الجرائد اليومية ، فيمضى « محمد أفندى » وقته يدخن ويبصق ويطالع الأخبار وينكت مع من حوله ويتفرج على الفلاحين وهم رائحون غادون أمامه ، مستنشقاً الهواء المشبع بالتراب الذى تثيره الدواب خلفها .

ومن الغريب أن « محمد أفندى » يشكو الوحدة وملل العيش ، وهو الذى يعرف كل من هب ودب من سكان القرى والبنادر . وهناك غير قهوة « مانولى » دكان « عم ربيع » الذى يقصده « محمد أفندى » عند مايكون منزله قفراً من الطعام ، فيأكل فيه « أم الفلافل » و « السلطة » و« الباذنجان المقلى » ، وربما عثر فى الصيف على منقوع الحلبة يرطب به جوفه

الحار ،هذا فضلا عن أخبار ونوادر يطرفه بها عم ربيع . وتوجد سكة الجسر التى تقوم بجوار الترعة ، يذهب اليها «محمد أفندى» فى أعصر كل يوم ليشاهد الفلاحات ويغازلهن ، وليتفرج أيضاً على اكسبريس العصر. ولديه -غير ذلك- الجامع يقصده كل يوم جمعة، لا اصلاحاً ولا تديناً، بل ليتسلى بالتفرج على الفلاحين وهم يغتسلون فى الميضة ، وليتفكه بحديث ساذج معهم ؛ وهناك أيضاً سوق «الأربعاء» يذهب إليها مرة فى الأسبوع وقت انعقادها ، لا ليشترى أو ليبيع ، بل ليساوم فى أثمان الطيور والدواب قتلا للوقت ، وليعاكس المارين ويتشاجر معهم .

ولكنه مع كل هذا تجده متبرماً بعيشه، يمضى حياته دائم التثاؤب والتمطى، ينتف شعيرات لحيته التى لا يحلقها إلا من الجمعة للجمعة ، ويقرض بأسنانه أطراف شاربه المشوه ؛ وفوق هذا فلمحمد أفندى خليلة من الفلاحات تبلغ الخامسة والأربعين ؛ عليها دلائل التهدم المبكر ، تحمل له الماء لملء الزير، وتقوم له ببعض الخدمة المنزلية ، تعرّف بها منذ أن حل ببلدة الكوامل؛ وهو مع ملله منها وكرهه لها لم يفكر لحظة فى تركها .

— ٢ —

وأخيراً انتقل ناظر محطة الكوامل إلى جهة أخرى ، وحل محله ناظر آخر : رجل يبلغ الخمسين ، مهيب الطلعة ، بشوارب ضخمة مبرومة ، وعيون كعيون الصقر ، لها بريق قوى ، متوجة بأهداب سوداء غليظة . وتوثقت بين « خميس أفندى » الناظر الجديد ، و«محمد أفندى العتر» صداقة متينة ؛ ولكنها كانت صداقة الكبير مع الصغير؛ إذ كان محمد أفندى العتر يشعر - وهو فى حضرة خميس أفندى - برهبة واحترام لا يعرف لهما سبباً ؛ فكان إذا قابله انحنى له مسلماً بخضوع غريب ، وإذا مر أمامه خميس أفندى قام محمد أفندى فزعاً وهرول إليه ، وهو يقول : جنابك عاوز حاجة ؟

وعندما يقف قطار الركاب على المحطة ، ويخرج خميس أفندى من حجرة « النظارة » متبختراً كالأسد المهيب ، ترى خلفه محمد أفندى يسير منكمشاً فى بعضه كالقط المضروب ، يدعك يديه ببعضهما ، وينظر إلى الناظر بابتسامة ذليلة ، ولسان حاله يقول :

— أنا فى الخدمة دائماً يا أفندم .

وشاعت فى البلدة أن لخميس أفندى زوجة سودانية آية فى الملاحة ، لم تتخط بعد عامها السابع عشر ، لها رشاقة ودلال نساء المدينة الخليعات ؛ فأرهف محمد أفندى العتر سمعه لهذه الأخبار المشوقة اللطيفة ، فكان يجلس على كرسيه جلسة استرخاء ، ويضع رجلا على رجل ، ويبدأ يسأل الناس عن هذه الحسناء ، وهو يلعب حاجبيه ويغمز بعينيه ؛ وعيناه النصف مفتوحتين تتيهان فى نشوة الأحلام . وإذا عاد إلى دار البريد ، وأخذ يقوم بعمله الميكانيكى يفرز الرسائل

والطرود ، انحنى على غلامه يسأله بصوت منخفض قائلا :

— أرأيت ياولد زوجة ناظر المحطة ؟

فيجيبه الولد ببلاهة ريفية :

— لا والله يا أفندى .

فينظر إليه محمد أفندى نظرة احتقار وغيظ ويتمتم قائلا :

— وماذا تعمل إذن فى هذه البلدة يا أهبل يامغفل ؟

وعلم أخيراً « محمد أفندى » أن السودانية الحسناء تخرج من منزلها فى الأسبوع مرة لتزور زوجة العمدة ، وهى تخترق دائماً الطريق الصغير ، فتمر دائماً أمام دكان «عم ربيع» فى الذهاب والاياب ؛ فشد محمد أفندى ركابه إلى الدكان ، واتخذه محلا مختاراً يمضى فيه الوقت من العصر حتى صلاة العشاء ، ممنياً النفس بمشاهدة مليحته . وقد رأى أنه من العار عليه أن يقصد هذا المكان وهو بهيئته البشعة ، فعزم على أن يجدد نفسه وملابسه ، وكانت ثورة كبيرة انتهت بأن استدعى الحلاق عنده ليحلق له لحيته ويهذب شعره ويعطره ، وطلب منه أن يأتى لزيارته كل يوم لنفس الغرض ، وأرسل بدلته إلى عاصمة المركز لتغسل وتكوى له ، ثم اشترى «حقاً» من الورنيش ، وأمر غلامه أن يمسح له حذاءه يومياً . وكان يذهب إلى الدكان وهو يمشى متبختراً ببذلته الصفراء النظيفة والعطر يفوح منه ، ثم يأمر عم ربيع أن يضع له كرسياً أمام الباب ، يجلس عليه مترقباً « مرورها » .

وأخيراً مرت السودانية الحسناء أمامه فى ملاءتها التى كانت تحكم شدها حول نفسها ، فتظهر أعضاء جسمها بارزة مغرية ، وكانت تتثنى فى مشيتها بقوامها اللدن ، وتتلفت يميناً وشمالا ، تنثر الابتسامات لكل الجهات ، فسحر بمرآها محمد أفندى ، وأصابه نوع من الاضطراب والخبل شل حركته وألجم لسانه ؛ وكم حاول غير مرة أن يرد على ابتسامتها بابتسامة غيرة متواضعة ؛ فيجد من عضلات وجهه تخاذلا مخجلا . وكانت أمنيته الوحيدة فى الحياة أن يأتى بحركة أو إشارة تفهم منها الغانية أنه معجب بجمالها وهائم فى حبها ، ولكنه — لفرط غيظه — كان يشعر — عند مرورها — بتصلب تام فى أنحاء جسمه ، فكأنه تمثال من حجر ؛ وإذا مرت واختفى طيفها الجميل فى الطريق ، يعود إليه إحساسه ، وتطاوعه عضلات وجهه ؛ فيصرخ من أعماق قلبه منادياً عم ربيع ، ويمسك بيديه يهزها بعنف وغضب وهو يقول له :

— لماذا خلقنى الله بهذا الطبع ؟ أنا مصيبة من مصائب الزمن .

فينظر إليه عم ربيع مشدوهاً ، لا يفهم لكلامه معنى ؛ وإذا ما انتهت العاصفة وعاد لمحمد أفندى بشره ، ينحنى على محدثه قائلا :

— ما رأيك ياعم ربيع فى السودانيات ؟

فتلعب لحية عم ربيع وتبرق عيناه ويقول مداريا ارتباكه :

— أنا رجل فى حالى يامحمد أفندى ، إعمل معروف اتركنى وشأنى .

فيمسكه محمد أفندى من جلبابه ويشده منه ويقول — وقد اكتسى وجهه بنشوة هادئة — :

إنهم يقولون إن السودانيات لهن طراوة عجيبة ياعم ربيع ، أجسامهن لينة كالعجين ، إذا وضعت أصبعك — مثلا — على ذراع إحداهن ساخ كأنه فى ملبن ؛ ومن الغريب أن لهن حيوية عجيبة فى الحب لا تجدها فى النوع الأبيض ، حيوية هائلة تشعر بلهيبها يدب فى جسمك من أقل لمسة تلمسها لهن . . . آه ياعم ربيع على قبلة واحدة منهن ! إن طعمها يبقى عالقاً فى فمك مدى الحياة . فيسقط عم ربيع من طوله ويقعد القرفصاء ، أمام محمد أفندى ، يلتهم بلذة عظيمة أوصافه الخلابة . . .

— ٣ —

وأخيراً قنع محمد أفندى بالنظر إلى محبوبته — من بعيد لبعيد — ورضى بالخيال دون الحقيقة ، وبالأحلام دون اليقظة ، وانقلبت حياته رأساً على عقب ؛ فاختفى محمد أفندى الكسول القذر الهيئة ، المشاغب الذى لا يجد فى العيش إلا السآمة والتعب ، وحل محله محمد أفندى النشيط الأنيق الوديع ، الذى ينظر إلى الدنيا نظرة الحب والابتهاج ؛ فرضى عن غلامه كل الرضا ، وخص خليلته بكامل عطفه ، وأغدق عليها المال والهدايا ؛ وكان إذا ما اختلى بها دنا منها — وهو مغمض العينين — وقال لها بصوت فيه نشوة الأحلام :

— قبلينى يا حبيبتى ! قبلينى فى فمى قبلة طويلة جداً . . . ويتطعم القبلة ، ويطلب المزيد منها ، متخيلا نفسه أمام سودانيته الحسناء تغمره بالقبل الحارة الطويلة ؛ وكان يذهب إلى القهوة ، لا ليقرأ الجرائد ، ولا ليتفرج على المارين ، بل لينظر تائها فى الغبار ، يتخيله سحباً رقيقة تسير فى الفضاء ، تسبح فيها حسناؤه برشاقة وإغراء . وقد كثرت تنزهاته الخلوية وسط الغيطان وجلساته التائهة بجوار الغدران ، يناجى نفسه بالمواويل الغرامية يغنيها بصوت ضعيف وهو يتنهد ويتمطى وينظر إلى السماء ؛ وكان يستنشق النسيم بقوة وهو فاتح ذراعيه على آخرهما ، كأنه يريد أن يملأ رئتيه بكل ما فى الغيط من هواء ، وإذا عاد إلى بيته مساء جلس على حافة النافذة يسامر النجوم والقمر ، ويصوغ لنفسه — بلذة عميقة — حوادث غرامية مع حبيبته ، متخيلا إياها فى أحضانه يهصر عودها الرخص بذراعيه ، ويرشف من ثغرها الرطب حلاوة الحياة .

وذهب مرة إلى القهوة ونادى صاحبها ، ثم مال عليه فى استرخاء وقال :

— عندك فونوغراف يامانولى ؟

— عندى يابيه ! ولكنه مكسور .

— ارسله للتصليح ، وأنا المكلف بمصاريفه .

وبعد أيام دار الفونوغراف ؛ وغنى لمحمد أفندى «أصل الغرام نظرة» ،فشعر محمد أفندى بطرب لم يشعر به طول حياته ، وأحس كأن قوة هادئة لذيذة تتمشى فى أعصابه فتخدرها رويداً رويداً ، وانهال على شاربه ينتفه ، وهو فى نشوة الطرب ؛ وأعاد الدور عدة مرات ، وكان يشارك الفونوغراف فى الغناء ، وهو يصرخ متأوهاً بآهات طويلة عميقة ، بعد كل وقفة فى الدور ، ويخبط بيديه على المائدة أو يعض أنامله دون أن يشعر بالألم .

وقد دعاه ناظر المحطة عدة مرات ليتناول الطعام عنده فى البيت ، فكان يذهب إلى المكان تام الزينة كأنه عريس فى ليلة دخلته ، ويجلس مرهف السمع لأقل حركة تصدر عن الدور الأعلى ،حيث توجد الزوجة ، فاذا سمع صوت أقدام تروح وتجىء ، خيل إليه أنه يسمع موسيقى تهبط عليه من السماء . . . . هذا بينما ناظر المحطة يروى له حياته ، وكيف قضاها بين قطارات الاكسبريس والركاب : حياة همة ونشاط ، مفعمة بجلائل الحوادث العظام، فكان محمد أفندى يجيبه بين فترة وأخرى وهو غارق فى أحلامه ومناجاته قائلا :

— قطارات الاكسبريس والركاب ؟ ! الله يكون فى عونك ياشيخ !

وفى هذه اللحظة يتخيل أنه سمع خشخشة أساور ، فينتشى طرباً لحلاوة نغماتها ، ويعود إلى خياله فيتصور أذرعاً عارية جميلة ذات بشرة ملساء شهية تعانقه عناقاً طويلا .

— ٤ —

وهكذا أمضى محمد أفندى العتر ثلاثة أشهر من حياته ، لم يشعر فى أثنائها إلا بكل ماهو شهى وجميل فى الحياة ... أحلام لذيذة وتخيلات عذبة كان يظنها ستدوم له إلى الأبد ؛ ولكن ما كان أشد حسرته عندما علم أن خميس أفندى ناظر المحطة سينتقل إلى محطة أخرى أكبر شأناً من محطة الكوامل ؛ وأنه سيترك البلدة إلى مقر وظيفته الجديدة بعد أيام قلائل .

وحل يوم الوداع ؛ فأخذ محمد أفندى يساعد الخدم فى نقل العفش من المنزل إلى المحطة ، ولعظم بلواه علم سراً أن زوجة الناظر قد سبقت زوجها فى قطار الصباح لتعد له المنزل وقت وصوله . وكان محمد أفندى يسير مطرقاً حزيناً على رصيف المحطة يقرض أظافر يديه ، ويركل بقدمه زكائب المحاصيل وعفش الفلاحين ، وهو يسب نفسه والناس على السواء .

ولما حل الميعاد وسمع دوى القطار ، خرج خميس أفندى من حجرة النظارة فى جمع من الموظفين والأعيان جاءوا للاحتفال بتوديعه ؛ وكان يسير بتؤدة ووقار ، يهز نفسه إلى الأمام وإلى الخلف كالجمل ، ويبرم شاربه الغزير برماً هادئاً ، فلما رآه محمد أفندى هرع إليه وأمسك يديه وهو يشهق باكياً ، فنظر إليه الناظر فى شفقة وشكره ، وقد أخذه العجب من إخلاصه، يهز يديه ولاطفه على ظهره ملاطفة أبوية .

وعاد محمد أفندى العتر إلى بيته ، وقد لبست البلدة أمام عينيه حلة سوداء بشعة ، وكان يحس فى قلبه بشىء ثائر يماثل الحية يلدغه باستمرار لدغات لا يستطيع احتمالها ، تدفعه إلى الصراخ والمشاحنة والضرب ، وانهال على غلامه وخليلته يكيل لهما اللكمات والرفسات على كل لون .

وذهب إلى قهوة «مانولى» ، ولكنه لم يكد يستقر به المقام حتى ضرب المائدة بيده وحطم فنجان القهوة ، مدعياً أن البن من النوع الردىء ، وقام من فوره قاصداً أسواق البلدة ـ وكان اليوم يوم الأربعاء ـ فأخذ يتعنت مع البائعين ، ويثير غضبهم بكلماته الجارحة ، ولم يهدأ حتى اشتبك مع أحدهم فى مشاجرة عنيفة خرج منها مبطوحاً ممزق الثياب .

ومرت الأيام فهدأت سورة محمد أفندى ، وعاد إلى سابق حياته ، فأهمل حلاقة لحيته إلا يوم الجمعة من كل أسبوع ، وخرج كل يوم إلى قهوة « مانولى » بهيئته البشعة عارى الرأس يضع على كتفيه — بإهمال — جاكتته الصفراء القذرة ، ويجر فى قدميه شبشبه البالى ، وأخذ يحضر من جديد صلاة الجمعة — بعد أن أهمل حضورها ثلاثة أشهر كاملة — ليتفرج على الفلاحين وهم يغتسلون فى الميضة ، ويتفكه بحديثهم الساذج معه . . .

وعندما كان يخطر على باله بعض ذكريات من أيام غرامه العذرى ، كان يتنهد بحرارة وهو ناظر إلى السماء بعيون دامعة ، ويناجى نفسه قائلا :

— ايه يا محمد . . . حلم وانقضى . . . ؟

محمود تيمور

من رومة الى مكة

لحضرة صاحبة السمو أميرة سرواك

السيدة خير النساء

تعتبر السيدة « خير النساء » أميرة سرواك الانجليزية ، من أشهر ربات الصالونات فى باريس ولندن ؛ ولهذا كان لاعتناقها الاسلام أثر كبير واسع المدي ، حتى ان صحفاً أمريكية أوفدت من مندوبيها من تحدث اليها مستفهما عن تعليل ذلك ، كما ذهب البعض الآخر للتحدث مع الدكتور خالد شلدريك ، رئيس المسلمين في انجلترا ، الذي اعتنقت الاميرة الاسلام على يديه . وقد أرادت هذه السيدة الكبيرة ألا تكتفى بما نشرته الصحف الاوربية والامريكية والاسيوية عن سبب اسلامها ، ورأت أن تنشر كتاباً فى ذلك عنوانه «من رومة الى مكة» (From Rome to Mekke) بالانجليزية والفرنسية . وهى تخص « مجلة المعرفة» بتعريب مقدمته قبل أن ينشر منه شيء فى أوربا .

يبين لنا التاريخ أن المدنيات تنشأ وترقى وتنتهى تبعاً لنسق ثابت معلوم ، ولأسباب دائمة التشابه ، ومع ذلك فإن الذكاء الانسانى لا يتغير على هذا النحو ، وكذلك فانه لما كانت خطوات التقدم التى تحصل فى الميدان المادى لا تفقد ولا تضيع ، إذاً فانه لأسباب انحطاط الأمم وزوالها أصلا خلقياً وروحياً .

وإن الاضمحلال الذى يطرأ على المثل الأعلى لشعب ما،هذا المثل الأعلى الذى كان سبباً لعظمته ، ثم إهمال الفضائل الأصلية للجنس، يستدعيان ويقويان عوامل الانحلال والفناء التى لا تلبث أن تنتصر .

وعندما أخذت امبراطورية رومة فى السقوط تحت تدافع الجرمان ، وتأثير الاضطرابات الداخلية ، لم يشعر الناس الذين عاشوا فى هذا العصر باضمحلال الامبراطورية،ولم ينتبهوا إلى العلامات التى كانت تنبىء حين تداعيها وسقوطها بنشأة عصر جديد ، ومع ذلك انقض ذلك البناء الشامخ ولم يبق منه إلا صور ، وقد حل الانخداع بالسلطان محل النضال ، وزالت العناصر الروحية التى عملت على مجد رومة وازدهارها ، ولم تعد المبادىء العظيمة : مبادىء الشرف والأمانة والتضحية، إلا كلمات جوفاء ، وتداعت الفضائل الخلقية والدينية،وقام مكانها الفساد ؛ وهوت الامبراطورية وفقاً لأمر التطور الذى لا يقبل الرد .

وفى حالة المجتمع الحاضر شبه يستدعى القلق بمرتبة الاضمحلال فى المجتمعات الغابرة ،

ويبدو فى هذا التشابه اجتماع لعلامات تنذر بالفاجعة ، ويسود القلق والحيرة فى كل مرافق العالم ، سواء فى ميدان الأخلاق ، أم فى الميدان الاجتماعى ، أو فى مجال الاقتصاد ؛ والعالم يحس - فى حيرة واضطراب - الخطر الذى يحدق به ويتهدده ، ويذيع فى قلوب الذين سيكونون أول الضحايا خلاءً مرعباً ، وذلك لأنهم الأكثر ذنباً وإجراماً .

والواقع أن خطأ عصرنا ونقصه يرجعان إلى إغفال الشرائع والقوانين التى تسيطر على الناس والجماعات ، أى هجر المعارف الحقيقية والعلم الالهى ، والاستعاضة عنها بشبه معرفة وعلم جد إنسانى ، والاعتقاد - فى سفه كبير - فى ذلك الوهم .

وقد اعتبر الناس أخطاءهم تقدماً ونجاحاً وارتكبوا إثماً كبيراً ، إذ استبدلوا بالله تعالى العقل الانسانى الذى هو من خلق الله ، وحسبوا أنهم أهل لأن يكونوا أكفاء لله أو أشباهاً له ، وظنوا أن النجاح المادى جدير بأن يقوم مقام السمو الروحى ؛ وزعموا إذ استطاعوا الانتفاع بالقوى الطبيعية أنهم يسخرونها ، وأخذهم الغرور بعلومهم فظنوا أنهم أرباب الخلق ، مع أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا على تلك الأسس العلمية شيئاً له دوام . إن المجتمع الذى يحرم نفسه من قيادة روحية ، ليقتحم مأزق لا مخرج له منها ، وإن الانسانية التى تؤمن بالنجاح والتقدم القائمين على قواعد إنسانية إنما تدفع بنفسها إلى العدم .

والناس يلاقون جزاء أخطائهم فى مجرى الحوادث ، وإن الظروف العنيفة التى يجتازها العالم ، وإن كانت الأوهام التى أقام عليها الناس آمالهم ، وطيبة المبادىء التى كانت ترجى السعادة منها ، وعقم العلم والنظام الآلى وما فيهما من غرور ، كل هذا يعمل على خلق اضطراب وفوضى ، يظهر ان الوسائل المادية عاجزة عن إيقافها ؛ وإذ أطلق الناس العنان لغرائزهم ، فقد ابتعدوا شيئاً فشيئاً عن القوانين الخلقية ، واعتبروها عقبات فى سبيل ما يسمونه تحريراً أو خلاصاً .

والله نفسه - فى نظر هؤلاء - عقبة أيضاً ؛ وقد تولت نفوسهم ومشاعرهم عن الله تعالى - هذا الرب القاضى الذى أقلقهم ! - وتولوا عنه باسم العقل والعلم ، وذهب خصوم الدين إلى نفى وجود الله نفياً كلياً ؛ وإن الكنيسة نفسها لمسئولة ، بسبب موقفها ، عن إبعاد الناس عن الله ؛ وجعله فى منأى عنهم ، وذلك لغموض أصولها وتعاليمها .

وإن الذين « يعلمون » يصرخون صرخة الفزع ، ولكن الناس لا يصغون إليهم ، كما لم يصغوا - من قبل - إلى صرخات الأنبياء من بنى إسرائيل ، وهم يتابعون خطاهم مسرعين نحو الهاوية صماً عن الانذار والتنبيه !

ومع هذا لم يضع كل شىء ، ومايزال فى الامكان رد فعل ، ويكفى بدلا من خضوع الناس لغرائزهم ، وإلى غرورهم وتهافتهم ، أن يهجروا تصوراتهم المادية والأنانية ، إذ هى مصدر كل شرورهم وآفاتهم ، وأن يستردوا الشعور بمثل أعلى .

ويكفى أن يفهموا المعنى الصحيح للحياة ـ ذلك المعنى الذى خسروه ـ وعليهم بدلاً من أن يضعوا مثلهم الأعلى فى المادة ، أن يذكروا أن لهم روحاً ، وأن هذه الروح متصلة بالله تعالى ، وأنه ليس فى الامكان أن يوجد أمر حقيقى أو جميل أو ثابت أو دائم ، إلا إذا قام بعد الله وعنايته .

ويحاول الكثيرون الذين احتفظت نفوسهم بمعنى مثل أعلى، أن يقاوموا هذا الانحلال . وهم يبحثون فى ماحولهم عن صيغة الدواء الذى ينقذ العالم، ونحن نشاهد فرقاً متعددة وطوائف شتى تنشأ كثيرة العدد متأثر بعضها بالأناجيل والعهد القديم، والبعض الآخر بمذاهب الهند . ويعود البعض الأخير إلى مذاهب الفلاسفة القدماء ويدعو إلى حياة الفطرة والبساطة. ولكل هذه المحاولات مبدأ مشترك ، إذ هى رد فعل يرمى إلى الخروج من المأزق الذى زج فيه المجتمع الحاضر ،

ويبين عدد هذه الطوائف أن الاعتقاد فى الروح ليس مذهباً ميتاً، ويبين ـ إلى ذلك ـ أنهم يتمسكون فى يأسهم بأى مذهب يستطيع أن يقدم إليهم شيئاً من تلك العناصر العليا ، التى يحسون مسيس الحاجة إليها، والتى يبحثون عنها بجشع كبير. ويبدو للكثيرين أن الحياة عديمة المعنى ، وذلك لأنهم فى حيرة تامة .

* * *

إذن: من ذا الذى يرشدهم إلى الطريق؟ وأين يستطيعون أن يجدوا ذلك الهدى الذى ينقذهم ؟ إن كنيسة رومة لا تقدر على أن تؤدى بالناس إلى ما ينشدون من هدى ونور ، وأن ترشدهم إلى ما هم فى حاجة إليه لنجاتهم مما يعانون من أزمه .

وإنما يقدر على معجزة الانقاذ دين خالص قوى ؛ وإنى لأذهب إلى القول بأنه لا بد لارجاع الناس إلى تصور سليم للحياة من ديانة كاملة ذات قواعد ؛ إذ لا يستطيع أن ينهض بهذا مذهب من المذاهب مهما كان حظه من الاحكام .

ولكن هل من ديانة هى من الوضوح بحيث يقدر الجميع على فهمها ، ومن موافقة العقل والتوسع بحيث تستطيع أن تكون دليلا مرشداً دون أن تكون عقبة ؟

بلى ! إن الأبحاث التى أفرغت نفسى لها، لكى أقضى على شكوكى وحيرتى ، لتسمح لى أن أجزم بذلك، وأن أؤكد أنه لا يوجد إلا دين واحد يقوم تمام القيام بحاجات المجتمع الحاضر، وينهض بكل الشرائط اللازمة لكى تستسيغه النفوس العصرية ـ هذا الدين هو الإسلام ـ .

هذا حل غير منتظر بلا شك ! لا سيما إذا اعتبرنا الأوهام السابقة التى تحيط فى أذهان الأوربيين، بديانة النبى ، ولكنه حل مشرق تعقلناه وفهمنا مغزاه بروح القرآن .

إن القرآن قابل للتطبيق عند كل جنس، دون أن يكف عن كونه أسمى تعبير عن الحقيقة من وجهات النظر الثلاث ، أى من حيث: المعرفة، والأخلاق، والعمران، ومن أجل هذا فهو عالمى يصلح لكل الناس .

ولكن الناس وهم يتخبطون فى حال عصبية من الحيرة باحثين عن طريق يتبعونه ، مع أن السبيل الأوحد للهدى هو فى العودة إلى اتباع الشرائع الالهية ... يتساءلون لماذا يبقى الاسلام فى منأى عن متناول الباحثين، فى حين أنه يستطيع أن يكون فى سبيل النجاة ؟ والواقع أنه لا يوجد الآن مذهب سواه ينطق عن الحقيقة الأولى، ويقدر على أن يضعها فى متناول الجميع. وإن الاسلام يشتمل فى الحقيقة على كل الوسائل اللازمة للوصول إلى المعارف العليا، وإلى الحكمة دون خوف من الاصطدام بحدود أو عقبات .

حقاً إننا نجد القرآن طابع الدين الوحيد ، الذى أنزل للناس منذ القدم، هذا الدين الذى قامت عليه كل الأديان، وهو الدين الوحيد الذى لا يقبل التغيير، والذى يقى نفسه دون كل التحويرات التى شاء الناس - كبرياءً أو جهلا - أن يحدثوها فيه ، ذلك لأنه هو الحقيقة ،ومن المحال أن يوجد أكثر من حقيقة واحدة ، وهذا من الأوائل الضرورية للعقل .

وإنى لأقول لهؤلاء الذين يقاسون ألم الحيرة النفسية - هؤلاء الذين يصدهم عن سبيل الله غموض فى ماتسمح لهم الكنائس بالوقوف عليه ، دون أن يكون لهم الحق فى تجاوزه ،هؤلاء الذين يصدم وجدانهم المعذب نفاق يشاهدونه لدى معلمى الأرواح، هؤلاء الذين يبحثون فى يأس واستماتة عن قاعدة وغاية فى كل المذاهب المختلفة - أقول لهؤلاء : خذوا القرآن وتأملوا ، وانسوا ما سبق لكم وراثته من أوهام وأحكام دون نظر شخصى سليم ، وافهموا المعنى الحقيقى لمذهب النبى ، واخلعوا عنه رداء المجاز والفصاحة الشعرية التى تقتضيها معجزة البلاغة العربية ، وتفكروا فى ذاته دون أن تصلوا به مناظر أجنبية أو صوراً غريبة ؛ إذاً سوف تجدون فيه كل ما أوحى به الله عز وجل قبل وحيه لآخر رسله وخاتم أنبيائه . أى سوف تجدون فيه أروع التعبيرات عن الحقيقة، سوف تجدون فيه -دون أسرار ولا غموض- المذهب الذى يجمع بين التشخص والمثل الأعلى، والذى يهديكم إلى حياة بسيطة مستقيمة وعلى حق .

وإنى لواثقة أن الاسلام هو ديانة المستقبل وأن الرسالة التى كلف بها النبى محمد لم تنته بعد ، بل لا تزال موجهة إلى العالمين .

وسوف يعود السلم إلى الناس عندما لا تفصل بعضهم عن بعض انقسامات سطحية ، وعندما يجتمعون على إيمان واحد فى معرفة الله ومحبته ،لأن الله هو إله الجميع . هذه نتيجة لا يتيسر إدراكها إلا عند وضع الحقيقة فوق كل المسائل المادية والأنانية ، أى بعزلها عن الصور التى أسبغها عليها هؤلاء الذين يستفيدون من إخفاء الحقيقة ، وكذلك بأن يبين للشعوب والأمم أنه يوجد فوق عداواتهم ومطامعهم إله واحد، شرائعه التى لا تتبدل واحدة للجميع .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » ٢ : ٢٨٤ ما

[باريس] ترجمه عن المخطوط الأصلى : م . خ .

المهـــــاجرة

بقلم الاستاذ أحمد سليمان حزين

متى وأين خلق الانسان :

اختلف جماعة الجغرافيين فى تحديد موطن الانسان الأول وفى تعيين زمن خلقه ؛ فمنهم من يقول إن الانسان الأول هبط الأرض فى جنوبى شرقى آسيا، ويستدلون على ذلك بوجود أقدم جمجمة إنسانية فى تلك الجهات؛ ويقولون إنه خلق فى عصر الميوسين (العصر الجيولوجى الثالث)، أو عصر البلايوسين (العصر الجيولوجى الرابع) ؛ ومنهم من ينكر ذلك ويدلى بآراء أخرى. وسواء أصح هذا أم ذاك، فالثابت أن الانسان الأول نشأ ودرج من جنس واحد، من حيث لون البشرة، وشكل الرأس، ونوع الشعر إلى غير ذلك من الصفات؛ ثم بدأ يدب على سطح الأرض مجتازاً الأودية والسهول، متنقلا من مكان إلى آخر؛ وبذلك تكونت جماعات عديدة خضعت كل منها لتأثير بيئة مخالفة لبيئة الأخرى، ومن هنا نشأ الاختلاف فى الأجناس كنتيجة فى الغالب للعوامل الجغرافية ؛ وقد بدأ هذا الخلاف فى الظهور فى أواخر العصر الجيولوجى الرابع، أى فى العصر الحجرى الأول.

أنواع المهاجرة وأسبابها :

وإذاً فالمهاجرة ترجع إلى عهد سحيق . ؛ إلا أن الانسان جبل على حب وطنه، ولذلك كانت الهجرة الاختيارية قليلة الحدوث وقليلة الأثر ؛ ولا تكون إلا حيث توجد المراعى بجانب الأودية الزراعية الغنية بخيراتها، فيطمع الرعاة فى نهب سكان الأودية القليلى الخبرة فى الحروب . ويختلف مصير هؤلاء المهاجرين تبعاً لظروفهم ورغباتهم ؛ فبينما ترى البعض يرجع إلى موطنه الأول، إذ بالبعض الآخر يفضل الاقامة فى البيئة الجديدة حيث يتطبع بطباع السكان الأصليين. يصاهرهم ويمتزج بهم الامتزاج الكلى. ولقد كانت مدن الولايات الاغريقية القديمة بأسوارها الضخمة وأبراجها الحصينة، عرضة للنهب والسلب عند ما تغير عليها القبائل التى تقطن سفوح الجبال، أو عندما تهاجمها جماعات القرصان التى اتخذت الخلجان والمضايق مراكز لها .

والعوامل التى تدفع الانسان إلى مهاجرة وطنه كثيرة ؛ منها عوامل قهرية ؛ كقلة الأمطار فى المراعى، فينتج عند ذلك جدبها وموت الماشية، فيضطر الرعاة إلى ترك أوطانهم التى نشأوا فيها ويصوبون أنظارهم نحو الجهات الزراعية ؛ وقد أثبت التاريخ أن غارات التتر والهون والقوط

على أوربا كانت نتيجة مباشرة لقلة الأمطار بمراعى وسط آسيا.

وقد يكون للعوامل السياسية دخل فى الهجرة، كما حدث فى التاريخ الانجليزى فى عهد الاصلاح الدينى واضطهاد المذاهب المخالفة لمذهب الكنيسة الانجليزية العليا؛ أو كما حصل بعد الحرب العظمى للروس الذين هالهم الانقلاب الاجتماعى الخطير فى وطنهم فتشتتوا فى سائر دول أوربا وأمريكا، وكهجرة البوير بجنوب إفريقيا حينما كان يطاردهم الرجل الأبيض حتى وصلوا إلى الترنسفال، أوكهجرة اليابانيين فى كوريا ثم منشوريا أخيراً. وتشجع فرنسا الهجرة إلى ولاية السار حتى تحوز أغلبية تعتمد عليها ضد المانيا.

وللعوامل الدينية أثر فعال فى الهجرة؛ فمثلا قد أدى اضطهاد قريش للنبى صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة النبوية إلى المدينة، وكخروج اليهود من أرض الفراعنة. وكثيراً ما يهاجر الانسان لكسب العيش أو بعبارة أخرى للاستعمار الاقتصادى، كهجرة الاغريق والسوريين واليهود. ويدفع الاستعمار الأمم منذ القدم إلى المهاجرة واستيطان الجهات المغلوبة على أمرها، كهجرة العرب إلى سائر البلاد التى دانت لهم وخضعت لسلطانهم؛ وكهجرة الانجليز إلى أستراليا وأمريكا الشمالية، ثم هجرة العنصر اللاتينى إلى أمريكا الجنوبية.

وللهجرات التدريجية التى تحصل فى عشرات السنين أهمية كبرى، إذ يترتب عليها نتائج كثيرة فمثلا عندما كثرت الهجرة فى القرن التاسع عشر إلى أمريكا قل عدد سكان ألمانيا فى الجهات الشرقية، ونزح إلى تلك الجهات سكان جدد من السلاف بدلا من الألمان المهاجرين لأمريكا.

ويسلك المهاجرون - فى زحفهم - أسهل الطرق وأقصرها، كأودية الأنهار والسهول؛ ولكنه إذا كانت تلك الأودية مزدحمة بالسكان كانت مقاومتها للمهاجرين عظيمة؛ أما الرعاة فانهم لايهاجرون إلا إلى البلاد المجاورة والتى لاتعوقهم أى عقبة فى طريقهم إليها؛ وبذلك كانت الجبال والبحيرات والغابات والصحارى توقف تيار هؤلاء الغزاة لأنهم ينتقلون بأنعامهم. كذلك وقفت ذبابة (تسى تسى) فى وجه الهجرة والاستعمار فى أواسط إفريقيا، لأن هذه الذبابة تقتل الحيوانات الأليفة التى لا يمكن للمهاجر الاستغناء عنها؛ كالأغنام والأبقار والخيل والجمال.

وتقف الجبال حجر عثرة فى سبيل المهاجرين، إلا إذا وجدت بها منافذ. ويذكر التاريخ أن الرومان قد اخترقوا جبال الألب واستعمروا بلاد الغال، ومنها وصلوا إلى وسط أوربا وألمانيا؛ وعن طريق هذه الجبال تمكن نابليون بجيوشه من فتح إيطاليا. ومتى كانت سفوح الجبال تنحدر انحداراً تدريجياً، فانها تساعد المهاجرين على اختراقها؛ ولذلك نرى الدول العظيمة تجتهد فى جعل حدودها طبيعية بقدر الامكان، وكلنا يعرف ماعانته فرنسا فى سبيل حدودها والنزاع المستمر بينها وبين ألمانيا على منطقتى الألزاس واللورين.

وهناك مثلان فى التاريخ القديم يبينان لنا أهمية الحدود الطبيعية، فكل من الأمبراطورية

المصرية والرومانية جعلت لها حدوداً طبيعية حتى يمكنها صد الغزوات، فامتلك المصريون سوريا وجعلوها حدهم الشرقى، فلما ضعفت الدولة واستقلت سوريا تمكن الغزاة من أن ينزلوا مصر أفواجاً.

الخطر الأصفر :

وظهر فى عالم الوجود فى أواخر القرن الماضى مايسمى بالخطر الأصفر ، أو ما يسميه الانجليز « قانون السياسة البيضاء White Policy »، وهى سياسة منع الأجناس الأسيوية من النزول فى قارة استراليا ، ولاسيما فى الجهات الشمالية الكثيرة الخصب والانتاج، والتى لما تستغل حتى الآن، نظراً لأن جوها لا يوافق الجنس الأبيض. ويشدد الانجليز فى هذا المنع، لأنه لو سمح للصينيين واليابانيين بالهجرة إلى هناك لتدفقت سيولهم حتى يأتى يوم يسيطرون فيه على الحكومة وجميع المرافق بحكم الأغلبية ، وقد حذت الولايات المتحدة حذو أستراليا ، فحرمت المهاجرة على العنصر الاصفر ، وشددت الخناق على من هاجروا منه من قديم الزمان ، ولا تسمح للفرد منهم أن يكون له عقار يطالب به، أو أن يكون له صوت فى الانتخاب مهما طالت مدة إقامته، وذلك لأنها رأت أن هذا العنصر لا يمكن أن يندمج ويصير أمريكيا ويترك عاداته الشرقية، لدرجة أن الصينيين النازلين بأمريكا يحتفظون بجثث موتاهم حتى ترسل فى آخر كل عام لتدفن فى أرض أبناء السماء !! فضلا عن أنه لو بقيت المهاجرة بلا قيد ولا شرط لكثر المهاجرون وبذلك ينحط مستوى المعيشة ، خصوصاً إذا علمنا أن فى استطاعة الصينى أن يعيش فى اليوم بنصف شلن .

ويستدل على الهجرات بالعوامل الآتية :

١ — اختلاف الجنس والسحنة للسكان دليل على أنهم ليسوا من عنصر واحد، وعلى أن عنصراً منها دخيل والآخر أصيل . وللتمثيل يمكننا مقارنة سكان مصر العليا بسكان السواحل والمناطق الشرقية حيث يكثر الاختلاط .

٢ — الأعمال والآثار والثقافة ، وكلها على جانب كبير من الأهميه ، فالثقافة الرومانية وأثرها الفعال والتى امتد نفوذها حتى القرن العشرين ، أكبر دليل على مابلغه الرومان من سلطة وجاه ، بعد أن هاجروا من موطنهم وتدفقوا إلى مستعمراتهم .

٣ — يدل تباين العادات على تباين فى الجنس ، إذ كثيراً مايحتفظ المهاجر بعاداته التى نشأ عليها فى موطنه الأول ، خصوصاً إذا كانت لديه اعتبارات دينية ، كالمهاجرين من الصينيين والهنود واليهود.

٤ — كذلك يظهر أثر الهجرات فى اللغات ، يشهد بذلك تأثر اللغة العربية بالفارسية إبان الفتوح الاسلامية، وأيضاً ما طرأ على اللهجات الأوربية الأولى من تغيير عندما انتشر نفوذ الرومان فى اغلب أجزاء القارة الأوربية .

أحمد أحمد سليمان حزين
خريج المعلمين العليا

كلمة من عمه :

فرنسوا بونجان

المؤرخ الفرنسي الذي يدافع عن الشرق

بقلم الأستاذ إيزاك موسى شموش [حلب]

أريد اليوم أن أعرفك بشخصية فذة : هي من الشخصيات البارزة في الأدب الفرنسي الحديث ؛ وأريد قبل ذلك أن أعلمك بأنها أخذت بجمال الشرق وسحره ، كما أخذ غيرها من أعلام الأدب في أوروبا ، فأوقفت نفسها ، بما أوتيت من بلاغة وبيان ، للدفاع عن الشرق والشرقيين !

ويعز على كثيراً أن تكون بحاجة إلى من يعرفك بتلك العبقرية اللامعة ، وقد أقامت في القطر المصري بضع سنوات ، وأقامت مثلها في القطر السوري الشقيق ، دارسة باحثة، لتضع عنهما مؤلفات ، يخلدها الزمان في ما خلد من الآثار والتصانيف .

ويروقك — كما يروقني — أن تسمعها تتحدث عن الشرق ، والشرق العربي بصورة خاصة ، فتنصت إلى ربيب « السين » يشيد بذكر « النيل » ويتغنى بـ « بردى » ، فلا يبدى « النيل » ولا يعيد ، ولا يلبى « برديه » ولا يجيب !

ويريدون بعد ذلك أن نقرهم على أن في البلادين صحافة، وصحافة أدبية ، تكرم الأدب ، وتحتفي بأعلامه !

* * *

« فرانسوا بونجان » !

عرفته للمرة الأولى ، يوم أصدر كتابه القيم عن « الأزهر » ، فأسرعت إلى المكاتب أطلبه لأتمكن من قراءته ، قبل أن تطلع الصحافة المصرية بنقدها وتقريظها ، فأتممته وانتظرت، ومن ثم أعدته بلهف وشوق ، وانتظرت ، وما لبثت أنتظر حتى اليوم . . . .

وعرفته للمرة الثانيـة ، يوم فاجأ المؤرخين والمفكرين ، بمؤلفه الثمين عن « المنصور » ، وأخذت على نفسي مراقبة الصحف العربية في مصر وغير مصر ، لعلي أعثر في إحداها على كلمة تنصف الكاتب ، فمرت الأيام ، ثم مرت الشهور ، و « المنصور » على ما هو عليه من قيمة أدبية وتاريخية ، لا يقوى على تحريك قلم من تلك الأقلام . . . . الكفيفة !

وعرفته للمرة الثالثة ، يوم استلفت الأنظار بكتابه عن « شيخ عبده المصرى » فوثقت أن سيثير هذا المؤلف حوله عاصفة من النقد ، تنجلي عن تخليد اسم مؤلفه ، ورفعه إلى

مصاف كتاب الدرجة الأولى فى الأدب الفرنسى الحديث .

ولكن كتاب أرض الفراعنة ، لبثوا صامتين ،كأهرامات الجيزة أو أبى الهول !

ولكن أدباء العالم العربى ، وجموا ،وتقلصوا ، ... وتلاشوا . . . . .

* * *

إلا أن مثل هذا الأثر الجليل ، لا تمر به صحافة فرنسا الأدبية ، دون أن تشغل حقولها بالتحدث عنه ، وعن واضعه أسابيع وأسابيع ، فلتعهد إلى نقادها بدرس « شيخ عبده المصرى »،ولتنشر عن هذه الأبحاث المقدمات الضافية ، ولتعلل القراء باطلاعهم على إحدى نفائس الأدب ، وليتسابق الكتاب إلى ميدان النقد، وليبد كل منهم الرأى الذى يكونه عن هذه التحفة النادرة لنفسه وبنفسه ، فسيرى أنه لم يك الوحيد، فى مايظهره من إعجاب،ويعترف به من تقدير !

ولتجمع الأندية الأدبية فى باريس وغيرها ، على أن « شيخ عبده المصرى » مؤلف قيم يحق لحملة الأقلام على ضفاف «السين» أن يفخروا به وأن ينسجوا على منواله !

ولتتجاوب هذه الأصداء فى جميع أنحاء فرنسا !

ولا تمضى أيام حتى تطلع علينا صحافة باريس الأدبية بنبأ سطرته بأحرف بارزة ، وفى أولى صفحاتها : « شيخ عبده المصرى » ينال جائزة«البعث » (La Renaissance)، وهى إحدى الجوائز الأدبية الكبرى،التى تمنح كل عام لأفضل كتاب أدبى يوضع باللغة الفرنسية!

جائزة البعث !

ومصر؟

وسوريا؟

والعراق؟

وفلسطين ؟

والبلاد العربية ؟

. . . . صدقت فيها سورة الكهف !!!

* * *

الغرب يكرم نصير الشرق ! والشرق عنه فى غفلة !

عجيبة نضيفها إلى «قائمة» العجائب ، التى تطول وتطول ، كل يوم ، وكل ساعة !

وليتجرأ أحد بعد اليوم أن يزعم ، بأن فى الشرق صحافة ، وأن فى الشرق كتاباً ، وأن فى الشرق قراء !

وليتجرأ أحد على ذكر الجمعيات الأدبيـة التى نسمع عنها فى الشرق ، ولا نرى لها أثراً عند اللزوم !

لندع ذلك جانباً ، فقد يكون مما يزعج « فرنسوا بونجان » أن يبصرنا نحرض الناس على إنصافه وتقديره ، ونحن أحرص الناس على رضاه ، ولنرهف أسماعنا إليه ، وهو يحدثنا عن الشرق ، وعن رسالته :

ـ الشرق فى يقظة روحية ، لما تتفتح أكمامها بعد ! فأمهلوه !

واسمعه يصرح برزانةوتفكير :

ـ إنى أعتقد أن للشرق رسالة سامية ، وأعتقد فوق ذلك أن رسالة الشرق خير الرسالات ، لأنها بالسعادة تبشر ، وبالروح تهتدى !

وسيؤدى الشرق رسالته ، يوم « تنبت » أجنحته ، وليس هذا العهد ببعيد !

* * *

وتـكاد تحسبه ، وهو يتحدث عن هذه الرسالة ، رسولا ينبئك عما ستتمخض به الأيام بعد بضع سنوات ، فهو يحدد لك ـ على وجه التقريب ـ العهد الجديد ، الذى ستدخله البلاد العربية ، ويسر إليك بأسماء الذين اعتمدتهم العناية الالهية ، ليقوموا بتأدية هذه الرسالة على أتم الوجوه (وأكثرهم من أدباء القاهرة).

* * *

وأذكر أنى التقيت به مرة ، فتحدث إلى عن موقف حملة الأقلام فى الشرق من تآليفه ، حديثاً مشبعاً بالحكمة والروية ، فهـو لا يأخذ على أدباء العربية « جمودهم » نحوه ، إذ يعتقد : « أن لهم من المسائل الهامة ما يشغلهم عن معالجة كتب توضع بلغة أجنبية ، ربما صعب عليهم الاطلاع عليها » !

ولا أكتمك أنى لم أفهم حتى هذه الساعـة ، ما أراد أن يقول بهذه الجملة ، وقد يكون قالها « متهكما » ، وقد يكون قالها عن سلامة نية ، وصفاء قلب ، ولـكنى أذكر أنه أردفها بقوله :

ـ نحن لا نكتب لهذا الجيل . . . . إنما نكتب للأجيال المقبلة !

[حلب] ايزاك موسى شموش

بين الحقيقة والخيال

المزارعون العارفون بالصناعات كلها !!

من مقال للكاتب الانكليزى المشهور

ويلفرد روبرتسن

وقفنا بك فى العدد الماضى من «المعرفة» عند المزارع الروديسى وهو يحترف طب الجسوم والجراحة. وفى هذا العدد نحدثك - كما وعدنا - عن المزارع، كصياد ومهندس ورجل بوليس :

من عديد الحرف التى يجب على المزارع الروديسى أن يكون عارفاً بها ، حرفة الصيد ؛ ليس صيد السمك . . . ولا صيد الفئران ، ولكنما صيد الأسود والفهود التى تتجول بزئيرها فى الغابة ، غير المحدودة ، والتى تقوم بغزوات دورية على الماشية السارحة فى المزرعة .

وأنا مثلا ، لم يكن جديداً علىّ - بعد إذ أمضيت عاماً أو عامين كمزارع فى هذه الأقاليم - أن يجىء إلى أحد الرئيسين الوطنيين فى صبيحة أى يوم ، يخبرنى أن أسداً أو فهداً قد تناول أكلته من لحم البقر . . . كان خبر الغزوة يحمل إلى فى الصباح الباكر ، ولم يمض على فواق من النوم نصف ساعة ، وبينما أكون جالساً أتناول الشاى ، قبل أن أخرج فى جولة التفتيش حول المزرعة كلها . .

فاذا مادعيت لمعاينة ماشية قتلها أحد الوحوش ، فانه يكون لزاماً على أن أؤجل سائر الأعمال الأخرى ، حتى نقر على رأى فى قتلها . وما تكاد الدعوة تصلنى حتى أسرع فآخذ بندقية وبعضاً من الرصاصات ، وأقفز على دراجة ، وأجرى قاطعاً الطرقات الضيقة المنعرجة من الغابة حتى أصل إلى المنطقة المقصودة ، حيث يكون الرئيس الوطنى قد ترك أحد وكلائه ينتظر قدومى ، وأترك دراجتى عند هذه المنطقة ، وتحت إرشاد الوكيل الوطنى أسرع خلال الأشجار إلى حيث الماشية الميتة التى تكون نصف مأكولة . . .

وقلما وجدنا القاتل فى مكان الجريمة . . . ذلك لأن أسود وفهود هذه الأقاليم من عادتها أن تسرع إلى مآويها النهارية ، ما إن تظهر خيوط الفجر الأولى . وعلى كل حال ، فقد كنت أتقدم فى حذر ، والبندقية فى يدى على استعداد ، وذلك فى حالة ما إذا كان القاتل فى مكمن مجاور . . . ويمكن أن تصل إليه طلقات الرصاص .

والآن فهأنذا والدليل الوطنى، قد وصلنا إلى حيث مكان الجناية التى حدثت فى الليلة الماضية، ففى وسط دائرة من الأغصان المتكسرة والملطخة بالدماء، وقد تثنت الحشائش من تحته، وجدنا بقايا القتيل . . أما القاتل فقد غادر المنطقة كلها . . .

واتجهنا بأنظارنا إلى الأرض، عسانا نجد أثراً للقاتل نتبعه... ولكن من الصعب أن تجد مثل هذا الأثر وسط حشائش نامية عالية، وأوراق أشجار متساقطة، وأغصان متدلية حتى الأرض لتختلط بما عليها . . . فلم نعثر بعد التى واللتيا إلا على أثر ضئيل، هو بعض حشائش هدلها عدو الأسد الهصور، مما أثبت لنا أنه قد فر وانتهى الأمر . . . ولكننا اتبعنا هذا الأثر الباهت مسافة؛ وكنت قد عرفت بالتجربة أنه لم يعد هناك من أمل، فى هذه المرة كما فى المرات السابقة المشابهة، فى توجيه رصاصة إلى صدر هذا القاتل الأثيم؛ وكنت أعرف أن باستطاعته أن يشعر بقدومنا، قبل أن تحين لنا فرصة رؤيته، فما يني حتى يقفز قفزة القطط الصامتة إلى مخابىء الغابة العميقة. ولقد ثبت هذا قطعاً بعد إذ تتبعنا الأثر أيضا هذه المرة بدون جدوى. ومن هنا فقد أعطيت الكلمة بالعودة والانصراف عن مطاردة القاتل.

ولو لم يكن من عادة تلك الحيوانات المفترسة أن ترجع إلى حيث تركت الفريسة فى مساء الليلة التى تلى الافتراس، لكان من أصعب الأمور على المزارع الروديسى أن يقتل الأسود والفهود التى تتسلط على قطعانه؛ ولكن هذه العادة تسهل عليه العمل كثيراً.

أما كيف ينتقم من القاتل، فانه يكون باحدى طرق ثلاث:

الأولى – وهذه فى الليلة التى تعقب الحادث – بأن يجلس المزارع ببندقيته فى يده، على شجرة قريبة من مكان الحادث، ينتظر عودة هذا المجرم النابغة فى الاختفاء !!

الثانية – بنصب الشراك لصيده.

الثالثة – بتسميم الجثة بالاستركنين.

فأما الطريقة الأولى فقلما تأتى بالنتيجة المطلوبة، نظراً لأن الرماية بالليل، مهما تكن مهارة الرامى، تكون متعبة وبغير جدوى. وخاصة لأن قاتل الماشية هو أكثر الحيوانات المتوحشة فطنة وحذراً. وهو ما إن يشعر، ولو شعوراً سطحياً بسيطاً بوجود الصياد، حتى يقفز قفزاته الصامتة ويغادر المكان، قبل أن يكون الصياد قد أحس اقترابه.

أما الطريقتان الأخريان، فمفيدتان كثيراً عن الطريقة الأولى. والطريقة الأخيرة لم أكن فى الحق أميل الى استعمالها، وطبعاً فكل هواة الصيد لا يميلون إلى استعمال السم فى صيد الوحوش، ولكنى كمزارع روديسى أحمى ماشيتى، كنت استعمل هذه الطريقة، إذ أنها أضمن الطرق الثلاث للقبض على القاتل . . بل للاقتصاص منه حالا . . .

وصباح الليلة التالية، يزور المزارع مكان الجريمة مرة أخرى؛ فى بعض الأحيان

كنت أجد القاتل ميتاً فى نفس المكان ؛ وفى بعض الأحيان لا يؤثر السم التأثير المطلوب ومن حيث الشباك المسلحة فانها قد تجرح الوحش ولا تقتله فى الحال. وهنا يأتى أخطر الأدوار فى حياة المزارع . فانه يصبح من الواجب عليه أن يطارد الوحش بكل الطرق الممكنة ليقتله . وما عرفت فى حياتى عملا ألذ من مطاردة وحش كاسر مجروح هائج فى وقت معاً ، إلى داخل الأحراش المترامية ؛ ذلك أن الوحش ينتهز الفرصة الأولى ، فيحتمى بأى غطاء من غصون الأشجار المتدلية أوراقها ، وهو فى الأعم الأغلب يبقى مختبئاً حتى يصير الصياد منه على مبعدة ياردات ، ثم تدور المعركة الوحشية . وصيد الوحوش فى الحق يحتاج الى أعصاب هادئة ، ومهارة فى الرماية بسرعة ، وفى الاتجاه الصائب . وقد حدث لى أنا شخصياً أن صدت وحشاً اشتبك معى فى قتال ، لم ينجنى منه إلا فوهة البندقية .

بوليس متطوع

وفى تلك الأقاليم الشاسعة لا يمكن إلا أن يكون رجال البوليس النظامى فيها قليلين، والمسافة بين درك كل واحد والآخر كبيرة أيضاً . ومن هنا فان على المزارع الروديسى أن يأخذ على عاتقه من الأعباء الكثيرة ، ما هو ملقى فى الممالك المتمدنة على حماة القانون الرسميين. وليس هذا أمراً خارقاً للعادة ؛ فالمزارع الروديسى فى منطقته يسمع بالجريمة التى تقع فيها وبجوارها ؛ قبل أن يسمع بها رجال البوليس النظامى الذين هم على مبعدة بعض من الأميال ؛ وهو إذا هب للضبط بسرعة، فانه يستطيع أن يقبض على الجانى ويسلمه للدرك ، قبل أن تساعده الظروف والحيل على النجاة ، وعدم الوقوع تحت طائلة القانون . والمزارع فى قيامه بدور رجل البوليس المتطوع ، يعاونه رجال القبيلة التى حدثت بها الجريمة.

وقليل من المزارعين يعنون بتقديم رءوسهم ضحية ، فى سبيل القبض على مرتكب بعض الجنح الصغيرة، مثل القبض على الأهالى الفارين من دفع الضرائب، وما شابه ذلك. ولكن فى حالة ما يكون الذنب سرقة أو قتلا ، فقليل هم الذين لا يقدمون رءوسهم فى سبيل القبض على الجانى المسىء، وإرساله إلى أقرب نقطة بوليس تحت حراسة وطنيين مسلحين. وفى بعض الأحيان يتم القبض على المجرم بسهولة ؛ ذلك لأنه يعجز عن الالتفات الى كل ناحية يمكن أن يتقدم منها من يقبض عليه. وفى أحيان أخرى فان عدم الاسراع ، أو الخطأ فى التصرف السريع ، يمكن الجانى من الفرار .

وفى ما يلى أسرد لك حادثين وقعا فى مزرعتى بالذات، لأبين لك كيف تكون الدعوة الفجائية للقيام بدور رجل البوليس المتطوع :

حدثت جريمة قتل فى إحدى القرى الوطنية المجاورة ، فعلى الرغم من أنها حدثت قبل أن أعرفها بليلة فقط ، فان كل العمال الوطنيين علموا بها عن طريق جهازهم التلغرافى العجيب

« تلغراف الغابة » مباشرة؛ وبعد إذ أسدل الظلام سدوله جاء إلى منزلى أحد الرؤساء الوطنيين عندى ، وقال لى إن الجانى قد دخل فى حدود القرية ، على أنه صانع أجير غير ثابت مقر العمل ، وإنه عائد إلى منبته فى الحدود الانكليزية البرتغالية ، وإنه قد طلب منحة : ماءً وطعاماً . فاحتجزه الآخرون يحادثونه قليلا فى انتظار وصولى ؛ هنا كان واجباً علىّ أن أذهب إليهم فأقبض على الرجل ؛ فوضعت مسدساً فى جيبى كنوع من الاحتياط ، وأسرعت إلى حيث كان الأهالى فى انتظارى .

وجدت الجانى جالساً إلى إحدى النيران المتقدة التى تدفىء ما بين الأكواخ . فكان دخولى المفاجىء عليهم ، وتجمهر الأهالى علىّ ، مدعاة له إلى اليأس والاعتقاد بأن الفرار قد أصبح أمراً مستحيلا . ودفعت المجرم أمامى إلى أحد مخازن الأطعمة ، وأغلقت عليه الباب جيداً حيث يقضى الليل ، ووضعت فى خارج المخزن قوة مسلحة وطنية .

وفى اليوم التالى عملت الترتيبات اللازمة لتسليم المجرم إلى أقرب نقطة بوليس ، وهى على مبعدة خمسة وعشرين ميلا ؛ فأخذت اثنين من أشد رجال مزرعتى الوطنيين ، وجعلت منهما حارسين ، سلح أحدهما ببندقية قديمة ، وسلح الآخر برمحين . وقد طلبا إلى بالحاح أن يوثق المجرم جيداً قبل أن يخرج من المخزن ، معللين طلبهما بأنه قد يفر منهما فى الطريق ؛ ولكنى عارضتهما وأفهمتهما أنهما من ضخامة الجسم وعظم القوة ومتانة السلاح ، بحيث يكون فى استطاعتهما منع أية محاولة منه للهرب .

وبعد يومين أو ثلاثة قابلت رئيس البوليس النظامى لهذه المنطقة ، فأخبرنى بوصول المجرم ، وظهر أن الوطنيين لم يعملا بأمرى ! فانهما بعد أن أصبحا فى مأمن من أن أراهما ، أوقفا الرجل وطلبا إليه أن يطيعهما طاعة عمياء ويسير كما يريدان . وأوثقا يديه الى ظهره ، وأوثقاه بوثاق ثقيل ، وعند ما وصلوا إلى المخفر كان المجرم فى حال يرثى لها . فقد شدت يداه إلى ظهره موثقتين ، ولف الحبل على جسده لفاً جعله يبدل خطواته بصعوبة كبير ، حتى كان الرائى إليه يخاله تمثالا مصرياً قديماً .

وحادثة أخرى .... فقد كانت هناك عدة سرقات تحدث فى القرى المجاورة ؛ وكان طعام وبطانيات وملاءات وغير ذلك من اللوازم المنزلية يسرق من أكواخ الأهالى .

وحدث مرة أو مرتين ، أن رؤى اللصوص فى الليل ، وهم يطيرون بمسروقاتهم ولكنهم ما ينون حتى يختفوا عن الأنظار ويختفوا بين الأدغال والأحراش.

ففي ذات يوم جاء إلىّ أحد المواطنين – الذين يشتغلون بتربية الماشية في مزرعتي – يخبرها وسار في وقت معاً ، ذلك أنه في أثناء بحثه عن حيوان ضال بين سلسلة من التلال القائمة في إحدى زوايا المزرعة ، اكتشف مخبأ ، نعم المخبأ !! ؛ وهو كهف تبين عليه أمارات العمران .. فاعتقد على الفور أنه المخبأ الذي يختبيء فيه رجال عصابة اللصوص الذين روعوا الأمن في تلك الأيام. فخرجت مع هذا الوطني لأرى اكتشافه ، فكان المكان غير معمور في تلك اللحظة ، ولكن كان به كثير من العلامات التي تبين أنه مأهول من أمد طويل .

وعند غروب الشمس اقتربت من ذلك الكهف مرة أخرى ، يصحبني اثنان من خيرة مواطني الأشداء . فكان المكان ما يزال خالياً ، فأخفينا أنفسنا ، قرب الكهف ، وبدأنا ننتظر عودة اللصوص الذين لديهم فرص كثيرة تسنح لهم ليجوسوا في الليل خلال المزارع والطرقات كما يريدون . وقد لاحظت مدخل الكهف مظلماً معتماً ، اللهم إلا ما ينبى عنه من ضوء نجوم السماء الأفريقية المتلألئة في أغلب الأيام .

وسمعنا صوت حجر يتدحرج من أعلى التل ، وتبع ذلك صوت أغصان تفرق وتفصل عن بعضها البعض ، فاعتدلنا في مجلسنا وأنصتنا .... ثم كان صخب آخر .... ثم ظهر شبحان على فم الكهف وقد انعكست بعض الأضواء القاتمة على الحراب والبلط التي يحملان ، وكان معهما حبل وطني ربط فيه كبش حي ، مأمأ شاكياً في تلك اللحظة متألماً ، وكان الآخر يحمل حزمة من الغنائم المتنوعة .

وهنا أطفأت المصباح المخفي ، ودفعت البندقية إلى الأمام في وجهيهما ، وصرخت في الوطنيين طالباً إليهما أن يهجما عليهما . . . وقد كانت اللحظات القليلة التالية خطرة جداً ؛ فقد تناثرت الحزم. والخراف والحراب وبلط القتال ، في كل الاتجاهات ، وهجمت علينا من فم الكهف شراذم عديدة من اللصوص ، ومن ناحية المزرعة كثير من الوطنيين الراغبين القبض على من أزعجوا أمنهم ، وبطريقة غريبة وسط هذا الزحام استطاع اللصان أن يفلتا مني ، ويهرعا خائفين في ظلام دامس بين الأدغال ، تشيعهما طلقات من بندقيتي لم تصبهما بحكم الظلام ، وإنما كان يسمع صوت احتكاكها بأوراق الشجر . وفشلنا في القبض على العصابة ، ولكن الأثر الذي أردنا ، تحقق بشكل واضح . فقد بطلت السرقات ؛ إذ اعتقد اللصوص أن حياتهم أصبحت مهددة بالخطر .

مهندس وبناء ! !

وعلاوة على كل تلك المهام العديدة التي ألقت بها الطبيعة على عاتق المزارع الروديسي فهناك صناعات أخرى لابد له أن يكون عارفاً وملماً بها ولو إلماماً بسيطاً ، من أجل ألا تتعطل

الأعمال فى مزرعته ، مع أنها بعيدة كل البعد عن واجبات المزارع العادى فى الممالك الزراعية المتمدنة . ففى الأقليم الذى تدور فيه كل الآلات الزراعية بواسطة الدوارين من الوطنيين ، لا بد أن يكثر حدوث كسر فى هذه الآلات ؛ وعلاوة على الخسارة التى تلحق بصاحب المزرعة من جراء ما سيدفعه فى إصلاحها ، فانه لايستطيع أن يرسلها إلى أقرب حداد أخصائى ليعالج الكسر ، لأن ذلك معناه تعطيل العمل أسابيع ، علاوة على المصاريف الباهظة التى يطلبها . فقى حالة ما تنكسر سكين محراث ، وهى هناك عبارة عن قضيب من الحديد سمكه بوصتان كاملتان ، فان من الواجب على المزارع أن يصلحها بنفسه فى الحال ؛ وفى (ورشته) الخاصة بالمزرعة . وليس مجهوداً بسيطاً ذلك الذى يبذله المزارع فى هذه السبيل ، نظراً لبداءة الآلات التى يستخدمها فى إصلاحها ؛ وهو فى بعض الأحيان يضطر إلى صنع بعض الأجزاء من جديد ، من قطع قديمة يصادف أن تكون عنده .

وعلى المزارع أن يشرف بنفسه على صناعة الطوب فى مزرعته ، وأن يكون ملماً بالعناصر التى يصنع منها ، ذلك لأن كل الطوب اللازم للمبانى يعمل فى داخل المزرعة ؛ وإذن فعليه أن يكون ضراباً كما عليه أن يكون بناءً كذلك . وأى وطنى غير مدرب على البناء النظامى لايستطيع أن يبنى أكثر من كوخه الخشن القذر المصنوع من الحشيش وشجيرات البرك . كما أن على المزارع أن يكون سباكاً ماهراً ، وميكانيكياً عارفاً بدق الطلمبات وما يتبع ذلك . كل هذه واجبات يتعرض لها المزارع الروديسى فى كل يوم . ولكنك قد تسأل : كيف يحصل المزارع على معلوماته فى كل هذه المهن والصناعات ؟ والاجابة ميسورة فى المثل القديم الذى يقول : إن « الحاجة أم الاختراع » ، فالمرء عندما يعيش بعيداً عن مساعدة كل الاخصائيين فى شتى الحرف والصناعات من حدادين وبنائين وماشابههم ، فإنه لايلبث أن يتعلم كيف يقوم بعمل هذه الاشياء لنفسه ، ويحصل على المعلومات التى لا يهتدى اليها من المزارعين الآخرين الذين يجاورونه ، وهو فى بادىء الأمر يعمل غلطات كثيرة ولكنه بالمزاولة يأتى فى النهاية بالتمام .

وتسطع الأضواء فى نوافذ البيت ما إن يصل اليه صاحبه ؛ وما إن يخط إلى الفير اندا حتى يسرع خادم المطبخ فيقدم له ما يذهب عنه عناء النهار كله « ويسكى غروب الشمس » . . . !!

والآن فهاهى ذى الأربع وعشرون ساعة التى للمزارع الروديسى قد وصفتها لك .. ومثل هذا اليوم هو عنده يوم عادى يسير على نظام عادى .:. ولو أنه يوم مسل بالاشياء التى لا ينتظر حصولها للرجل العادى . وهو يعلم أن الغد سوف يحمل اليه تشكيلة أخرى من الحوادث ، تشكيلة تجعل حياة المزارع الروديسى الهادئة مستساغة بل تجعل فيها لذة أخرى وفيها متعة ... ؟

[عن : مجلة المجلات الانكليزية]

٥ – المعانى الافلاطونية عند المعتزلة *

للاستاذ محمود الخضيرى
عضو بعثة الجامعة المصرية بباريس

عرف المسلمون أفلاطون منذ زمن مبكر ، وذلك بواسـطة رجال الدين المسيحيين الذين كانت الفلسفة الذائعة بينهم هى المذهب الأفلاطونى الحديث . وكان تأثير هؤلاء الشيوخ المسيحيين فى الثقافة الاسـلامية بالاتصال الشخصى والتعليم الشفوى ، ولاسيما فى دور الخلفاء والولاة حيث تولى كثير منهم مناصب مختلفة فى عهد الأمويين . وجاء بعد ذلك عصر الترجمة فنقل إلى العربية كثير من محاورات أفلاطون ورسائله ، وكذلك عدد لا بأس به من الكتب المنسوبة إليه . ثم إنهم عرفوه أيضاً بواسطة مؤلفات أرسطو التى تحتوى على شروح نقدية لآراء أفلاطون ؛ وساعدهم على فهم تلك الشروح كثير من التعليقات على أرسطو التى نقلت أيضاً إلى العربية، وكان أكثر المعلقين من أنصار المذهب الأفلاطونى الحديث مثل سمبلسيوس Simplicius . ويجدر بنا أن نذكر من بين أصحاب التعليقات على أفلاطون من اليونان الذين نقلت مؤلفاتهم إلى العربيـة اسم ثيون Theon الأزميرى، الذى اشتهر بين المسلمين كتابه عن المعلومات الرياضية الضرورية لفهم أفلاطون . (١)

ونحن نبدأ — فى الكلام عن العصور الأولى التى عرف فيها المسلمون مذهب أفلاطون — بالوثائق الوضعية التى وصلت إلينا .

يرد اسم أفلاطون فى أعمال الكندى (المتوفى سنة ٨٧٣ أو ٨٧٤ م) فى مناسبات عدة تدل على معرفة الفيلسوف العربى بأعمال أفلاطون . قال فى كتابه عن العقل والمعقول De intellectu et intellecto ماترجمه عن النص اللاتينى : «فهمت ماتطلب إلى من أن أكتب إليك مقالا موجزاً عن العقل [والمعقول] على مذهب أفلاطون وأرسطو » (٢) وكذلك قال فى كتابه عن الحلم والرؤيا Liber de Somno et Visione . . . . « وأمامنا فى الحقيقة

(*) راجع «المعرفة» : أجزاء أغسطس وأكتوبر و نوفمبر و ديسمبر سنة ١٩٣٣

(1) M. Steinschneider : Die arabischen Uebersetzungen aus dem Griechischen Zwolftes Beiheft Zum Centralblat für Bibliothekswesen, Leipzig 1893 , § 8 «32» S. 16 — 17 وسنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بقولنا . شتاينشنيدر : التراجم العربية من اليونانى

[2] A. Wagy : Die philosophischen Abhandlungen des Jaqūb ben Ishaq Al - Kindi فى Baeumker : Beitraege zur Gesch . d . Philos . d . Mittelalters . B d H ; H t V, Münster 1897; وسنشير الى هذا الكتاب بقولنا : ناجى ، رسائل الكندي . ص ١

ماقاله أفلاطون العظيم فيلسوف الاغريق وما شرحه وحكاه فيلسوفهم الأشهر أرسطوطاليس فى مقالاته الطبيعية ».[١] ويشرح الكندى فى مايلى ذلك مع ــ ذكره لاسم أفلاطون ــ رأياً جد أفلاطونى ، وهذه خاتمة شرحه : « وإذن فالاحساسات والادراكات العقلية شىء واحد ، إذ أنها من اختراعات النفس ، وإذن فهى جميعاً موجودة فى النفس ، ومن أجل هذا قال أفلاطون إن النفس هي المحل لجميع المعارف الحسية والعقليه ».[٢] ثم إن الكندى يقول أيضاً فى رسالته فى الأسماء الخمسة[٣] Liber de quineque فى مقاله عن المكان ماترجمته : « وآخرون قالوا ماهو المكان تبعاً لماقاله أفلاطون ».[٤]

وقد ذكر ابن النديم المتوفى سنة ٩٩٥ م كتاباً للكندى عنوانه « رسالة فى الابانة عن الأعداد التى ذكرها أفلاطون فى كتاب السياسة »[٥]، كما ذكر له أيضاً خمسة كتب عن سقراط.[٦]

وعلى كل حال فانه لم ينته القرن التاسع للميلاد حتى كانت اللغة العربيــة تشتمل على تراجم للجمهورية (= السياسة) والشرائع (= النواميس) والسوفسطائى (= سفسطس) وطيماوس وقد عرفه المسلمون خير معرفة .[٧] وكذلك عرفوا سائر المحاورات الأفلاطونيــة وبعض التعليقات عليها، وكثيراً من الأعمال المنسوبة إليه وهى ليست من تأليفه.[٨]

ونحن نعيــد هنا ماسبق لنا تقريره من أثر التعليم الشفوى فى تعريف المسلمين بالفكر الاغريقى . وإذن فليس من الحزم أن تقيس علـم المسلمين بفلسفة اليونان وعلومهم بالتراجم العربية فقط ، أو أن نؤرخ اتصالهم بتلك الثقافة وفق تاريخ المترجمين الرسميين الذين عاشوا جميعا فى ظل الدولة العباسية ، وذلك لأننــا نرجح ترجيحاً قوياً أن كثيراً من الكتب اليونانية قد نقل إلى العربية فى عصر الأمويين بفضل علمــاء مصريين . ويؤيد ذلك ماجاء فى تاريخ الطبرى (المتوفى سنة ٧٨٦ م) بمناسبة عام ٦٤ من الهجرة (= ٦٨٣ م) إذ قال مانصه :

---

١ ــ الكتاب المذكور : ص ٨ .

٢ ــ الكتاب المذكور ص ١٩ ــ ٢٠

٣ ــ الترجمة الحرفية للعنوان اللاتيني هى « كتاب الذوات الخمس » ولكننا اخترنا العنوان العربى على رواية ابن أصيبعة. راجع مقدمة الاستاذ ناجى فى طبعته المذكورة لرسائل الكندي ص٦ و٧ (بالترقيم الرومانى).

٤ ــ ناجى : رسائل الكندى ص ٣٧ . وقد أضاف الاستاذ ألبينو ناجى فى مقدمته ص ٢٥ (من الترقيم الرومانى) فى هذه المناسبة (Timaeus) (طيماوس)

٥ ــ كتاب الفهرست : طبعة فليجل ص ٢٥٦ وانظر أيضاً : شتاينشنيدر، التراجم العربية من اليونانى، الفقرة ٩ (٣٣) ص ١٨

٦ ــ كتاب الفهرست : ص ٢٦٠ .

٧ ــ انظر شتاينشنيدر ؛ الكتاب المذكور ص ٢١

٨ راجع فيما يختص بالتراجم العربية لمحاورات أفلاطون كتاب اشتاينشنيدر المذكور ص ١٦ ــ ٢٩

«من أولاديزيدبن معاوية،خالد بن يزيد،ويكنى أبا هاشم،وكان يقال إنه أصاب عمل الكيمياء» (١)
ومما يؤيد دعوانا بالأصل الاغريقى لكيمياء خالدبن يزيدما كتبه ابن النديم: «كان خالد . . . يسمى حكيم آل مروان ؛ وكان فاضلا فى نفسه وله همة ومحبة للعلوم ، خطر بباله الصنعة فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربيـة ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى. وهذا أول نقل كان فى الاسلام من لغة إلى أخرى » (٢). وقد ترك خالد بن يزيد المتوفى (٨٥ — ٧٠٤ م) ثلاث رسائل تدل على اتصاله بالفكر الاغريقى . (٣) وقد ظلت هـذه الأقوال موضع شك كبير حتى جاء الأستاذ يوليوس روسكا J. Ruska حجة المعاصرين فى تاريخ العلوم عند المسلمين ، فأيدها بما اكتشفه من نصوص وكذلك بأبحاثه العميقة (٤) .

وإذن فليس القرن التاسع للميلاد هو مبدأ عصر الترجمة، وإنما هو قمة تلك الفترة المزدهرة من تاريخ المسلمين حيث اجتهدوا فيها فى طلب العلم باحثين عنه فى كل مصادره، ولاسيما فى الثقافة اليونانيـة . أى إن النتيجة التى أريد أن أنتهى إليها هى أن المسلمين عرفوا الفلسفة فى زمن سابق للمترجمين الرسميين الذين عاشوا فى ظل العباسيين وبقيت لنا آثارهم ، وذلك عن طريقين : الأول طريق التعلم الشـفوى ، والثانى طريق الترجمة نفسها التى بدأت منذ أيام الأمويين، ولـكن لم تصل إلينا وثائق وضعية عن هذه المحاولات . وهذا مايفسر عثورنا على معان فلسفية إغريقية وغير إغريقية عند شيوخ من المعتزلة عاشوا فى القرن الثامن للميلاد .

ومن المفيد أن نذكر فى تلك المناسبة ما كتبه الشيرازى (المتوفى سنة ١٦٤٠ م) بعد أن شرح قول المعتزلة فى أن المعدوم شىء ثابت . (وهـذا ماسندرسه بالتفصيل فى ما بعد) : « قال [صاحب الاشراق فى كتاب المطارحات] وهؤلاء قوم نبغوا فى ملة الاسـلام ومالوا إلى الأمور العقلية ، وما كانت لهم أفكار سليمة ،ولا حصل لهم ماحصل للصوفية من الأمور الذوقية، ووقع بأيديهم مما نقله جماعة فى عهد بنى أمية من كتب قوم أساميهم تشبه أسامى الفلاسفة، فظن القوم أن كل اسم يونانى فهو فيلسوف، فوجدوا فيها كلمات استحسنوها وذهبوا إليها وفرعوها رغبة فى الفلسفة وانتشرت فى الأرض وهم فرحون بها »(٥)

وقد جرت العادة على أن لايسمى المعتزلة « فلاسفة » أو « حكماء » ، ويظهر أن السبب الذى منع المسلمين أن يطلقوا عليهم هذا اللقب هو أنهم لم يأخذوا بمجموع المعارف

١ـ تاريخ الطبرى ج ٧ ص ١٦ طبعة بولاق

٢ ـ الفهرست ، طبعة فليجل ص ٣٤٢

٣ ـ بروكلمن ، تاريخ الأدب العربى ج١ ص ٦٧. Brockelmann, Gesch. D arab. Litt. 1 —

٤ ـ راجع لوصف تلك الابحاث مجلة Der Islam المجلد الثامن عشر (سنة ١٩٢٩) ص ١٧٦ — ١٨١. والاستاذ روسكا نفسه فى المجلد عينه ص ٢٩٣ — ٢٩٩ .

٥ ـ صدر الدين الشيرازي : كتاب الاسفار الاربعة : مطبوع على الحجر في طهران سنة ١٢٨٢ هـ ص ١٧ فى المنتصف . وانتهز هذه الفرصة لاشكر للاستاذ الفاضل لويس ماسنيون تكرمه باعارتى هذا الكتاب الا ندر

الفلسفية لليونان ، ونحن لا نعرف منهم من كان طبيباً كسائر « الفلاسفة » الإسلاميين ، وكذلك فان معرفتهم بالعلم اليوناني مقصورة على جانبه النظري ، وغير منفصلة عن علم مابعد الطبيعة ، مثال ذلك أقوالهم في الجوهر والمكان والزمان والحركة . ومع ذلك فان المسلمين لم يغفلوا ما بينهم وبين الفلسفة من صلات وثيقة ، ومثال ذلك أن أبا نواس الشاعر المشهور قال في معاصره النظام أبياتاً تدل على ذلك ، وتكشف لنا في الوقت نفسه عن عدم اطمئنان الشاعر إلى تشدد المعتزلة في قولهم بالعدل . قال أبو نواس :

فقل لمن يدعى في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرءاً حرجاً فان حظركه بالدين إزراء [1]

وكذلك قال الشهرستاني عند شرحه لمذهب واصل بن عطاء في الصفات الإلهية ، وميله إلى نفيها : « وكانت هذه المقالة في بدئها غير نضيجة ، وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر ،وهو الاتفاق على استحالة وجود إلاهين قديمين أزليين ،ومن أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلاهين ، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلسفة »[2]. وكذلك نسب الأشعري مذهب المعتزلة في نفي الصفات إلى أصل فلسفي إذ قال : « وهذا قول أخذوه عن إخوانهم من المتفلسفة » [3] ، كما ذهب إلى أن أبا الهزيل العلاف تأثر في توحيده للذات الالهية بالصفات بقول أرسطو [4] . ثم إن الشهرستاني يقرر أيضاً أن النظام قد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وأنه خلط كلامهم بكلام المعتزلة [5] . وقد اعتاد الشهرستاني على العموم أن يردف شرحه لمذاهب أهل الاعتزال بما معناه أنهم أخذوا مقالاتهم عن الفلاسفة أو يقتصر على الاشارة إلى علاقة مذهبية بين الفلسفة والاعتزال . وكذلك قال النسفي (المتوفى سنة ١٣١٠ م) إن المعتزلة « توغلوا في علم الكلام وتشبثوا بأذيال الفلاسفة في كثير من الأصول [6] »

ويطول بنا المقام إذا أردنا الاكثار من شهادات المؤلفين الاسلاميين بالعلاقة بين الفلاسفة والمعتزلة ، فلنقتصر على ما أوردناه ، وسنشرح في المقال الآتي الأسباب التي تدعو هؤلاء إلى الميل نحو الفلسفة الأفلاطونية ؟

محمود الخضيري

[باقى]

(١) في قطعة من كتاب الفهرست لم تنشر في طبعة فليجل ونشرها الاستاذ هوتسما Houtsma في مجلة فينا لمعرفة الشرق Wiener Zeitschrift Für die Hunde des Mor Genlandes المجلد الرابع فينا سنة ١٨٩٠ ص ٢٢٠

(٢) الملل والنحل ، طبعة خليفة ، ج ١ ص ٥٣

(٣) مقالات الاسلاميين ، ج ٢ ص ٤٨٣

(٤) نفس الكتاب ، ج ٢ ص ٤٨٥

(٥) الملل والنحل . ج ١ ص ٦٠ — ٦١

(٦) العقائد: طبعة استامبول ص ٨

مكتبة المعرفة

رسالة تاريخية

عن مستشفى الاسكندرية الأميرى

[وضعها الدكتور عبد الرحمن بك عمر فى ٨٤ صفحة: طبع مطبعة التعاون]

البحث فى المسائل التاريخية ، يتطلب دقة فى الاستقراء ، وتعمقاً فى دراسة النصوص ، واستيعاباً ظاهراً لمختلف ماتحتويه الوثائق والمؤلفات خاصاً بالمسألة التى نصب المؤرخ لها نفسه؛ لذلك كانت مهمة المؤرخ المحقق من أشق المهام ، وأكثرها تعرضاً للزلل والخطأ ، وبخاصة فى الموضوعات التى تعددت فيها الروايات ، واختلفت الأقاصيص ؛ فإذا وفق المؤرخ إلى كشف الحقائق البعيدة عن الزيف والتمويه ، ارتفع بعمله ذاك إلى درجة تعز على من رامها من الآخذين بالقشور دون اللباب .

لذلك كان تقديرنا بالغ الشأن لهذه الرسالة القيمة الجليلة التى وضعها حضرة الطبيب الذائع الصيت الدكتور عبد الرحمن بك عمر مدير مستشفى الاسكندرية الأميرى سابقاً ومدير المستشفيات العامة بمصلحة الصحة حالا ، متناولا فيها ، بالدقة والتحليل والسرد: تاريخ المستشفى وبنائه ، وموقعه ، وأبنيته ، ومديريه ، ونهوضه من الوجهة الفنية ، ومشاهير رجاله . وغير ذلك مما يتصل إلى المستشفى بسبب ، باسطاً إياه فى أسلوب رصين ، مؤيده بوثائق مدعمة ، وحجج لاتقبل جدلا ولاشكا ؛ ثم قفى ذلك كله بتوضيح ما تناوله بالرسوم ؛ فوضع صور مؤسسيه ومديريه والعاملين فى بنائه ، أوالذين لهم نصيب فيه ؛ ثم صور أبنيته وزين ذلك كله بصورة حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول ، الذى نهض فى عهده مستشفى الاسكندرية الأميرى نهضته الأخيرة .

وقد دل حضرة المؤلف الفاضل بعمله هذا ، على ما تتحلى به نفسه من فضائل ، أقربها إلينا فى هذه الرسالة التى بين أيدينا ، فضليتان هما : إخلاصه للعلم ، وإخلاصه للعاملين عليه .

وحسبنا أن نقدم للقراء فقرة صغيرة من التصدير الذى صدر به المؤلف الفاضل رسالته ، ليعرف القارىء مقدار ما بذل فى هذا البحث الجليل من جهود .

قال المؤلف بعد أن عدد جملة ما لاقاه من صعوبات فنية : « وفوق ذلك وجدت صعوبات جمة فى الحصول على المعلومات التاريخية عن المستشفى ، وقدرت أن من يأتى بعد جيلنا الحاضر

ربما يهمه أن يعرف شيئاً عن حياته فلا يتيسر له ، فصممت على وضع هذه الرسالة بمناسبة مرور مائة عام على إنشائه ،وتوخيت أن أذكر فيها ما وصلت إليه من تاريخ بنائه، وماصادفه من التدرج فى رقيه ، من حيث مبانيه وإدارته وأعماله الفنية ، مع ذكر من وصلت إلينا أسماؤهم من رجاله السابقين ، واصفاً حالته الحاضرة بما كنت أتمنى أن أجده مسطوراً عن أدواره الأولى .... وكل ما أستطيع أن أدعيه أنى أخلصت فى رسالتى إلى التاريخ »

فنثنى على همة حضرة المؤلف الجليل الدكتور عبد الرحمن بك عمر ،ونشكر له هذا الصنيع الجميل الذى أسداه إلى العلم وإلى الوطن ، راجين أن تكون هذه الباكورة الموفقة ، فاتحة لسلسلة من بحوثه الجليلة . كما نثنى على القائمين بأمر مطبعة التعاون، الذين لم يدخروا وسعاً فى سبيل طبع الرسالة طبعاً جميلا .

رسالة الناصر معروف
فى الذب عن مجد التصوف

مؤلف هذه الرسالة الأستاذ الفاضل والعالم الجليل المعروف بتلقين الاسم الأعظم، سيدى الحاج أحمد بن مصطفى العلوى المستغانمى ، شيخ علماء الجزائر .

والرسالة التى بين أيدينا يدور محورها حول الدفاع عن مذاهب الصوفية ، وتفنيد ماوجه إليهم من تهم وشبه ، وقد حاول المؤلف الفاضل — جهد الطاقة — أن يناقش آراء مخالفيه فى أدب عال وخلق قويم ؛ كما أخذ بأيديهم — فى رفق — إلى سبيل الحق وطريق الرشاد ، دون أن يزهى بما وفق إليه من حجج وبراهين أوردها لتأييد دعوى التصوف ؛ وقد كان موفقاً التوفيق كله ، فى إيراد حججه التى أستلها من أقوال أعلام الدين وأئمته وشيوخه، المشتغلين بعلوم الشريعة دون الحقيقة ، فلم يعتمد على أقوال شيوخ التصوف ، ومؤلفى كتبه ؛ كالغزالى والشاذلى مثلا ،وإنما أثبت ما يريد من دفاع عن المتصوفة، من أقوال: التفتازانى والأجهورى والبونى ومحمد عبده وفريد وجدى والسيد رشيد رضا وغيرهم .

ثم فند أقوال ابن الجوزى التى أوردها فى كتابه « تلبيس ابليس » ،وقال : « إن للعلماء فى ذلك الكتاب كثيراً من الأخذ والرد ؛ وفى الأخير اتضح عندهم أنه مما لا تنهض به الحجة ولا يصح به الاستدلال »

وقد تناولت الرسالة وجوها كثيرة من مختلف نواحى التصوف ؛ وانتهى فيها الأستاذ إلى وجوب الاعتقاد بأن التصوف لا ينبغى أن يختلف فيه المسلمون ،ما دام عبارة عن السير فى مقام الاحسان الذى هو أحد أركان الدين .

ومهما يكن لنا من رأى ، قد يخالف فضيلة الأستاذ المؤلف فى بعض جزئيات المسألة ،

فانا لا ننكر ما لرسالته الجليلة من قيمة وفضل فى تبديد كثير من الشبهات .
نفع الله به الاسلام والمسلمين .

مجموعة المحاضرات

لجماعة نشر الثقافة بالاسكندرية

كنا ، إلى عهد قريب ، سيئى الظن ببقاء الجاعات والنوادى التى تنشأ للأغراض العلمية أو الأدبية أوما شاكل ذلك ، لأنا لاحظنا باستمرار أن أكثر هذه الجماعات تؤلف لخدمة أشخاص معينين ، أو لتحقيق مآرب ذاتية ، على حساب المصلحة العامة تارة ، والجمهور الساذج تارة أخرى . .

ولهذا كنا نرى باستمرار أيضاً ، أن تلك الجماعات ، ما تلبث الواحدة منها ظهوراً حتى يكشف أمرها ، فتعود إلى الرمس الذى بعثت منه . ويقيننا أن كثيراً من هذه الجماعات سينقرض إن آجلا أو عاجلا ، بفضل يقظة المثقفين من شباب الأمة ، الذين يزدادون يوماً بعد يوم .

والآن وبين أيدينا مجموعة المحاضرات الأولى ، التى ألقيت بمعهد الثقافة لجماعة نشر الثقافة بالاسكندرية (من ٣١ أكتوبر إلى ٢٥ نوفمبر ١٩٣٢) ، نصرح - فى صدق ويقين - أن هذه الجماعة قد بدأت تؤتى أطيب الثمرات ، وتؤدى بعض ما فى أعناق القائمين بها من حق ودين للأمة التى أنجبتهم .

أولئك هم جماعة نشر الثقافة ، بارك الله فيهم ، وفى مجهوداتهم التى تشعرنا بما سيكون لهم من أثر جليل ، فى ما يساهمون به من العمل - فى دأب - على خدمة الثقافة الصحيحة ، بعيدين عن الزهو والادعاء والغرور ، شأن بعض القائمين بجماعاتنا من عشاق الشهرة والظهور ، والحمد لله الذى لايحمد على المكروه سواه .

وبعد فان الجزء الذى بين أيدينا حافل بمختلف البحوث الأدبية والعلمية والتاريخية والطبية ، وما إلى ذلك .... مما قد نعرض له فى فرصة أخرى .

ورجاؤنا إلى شباب الأمة ، أن يقدروا مجهود أولئك الأشبال ، الذين تقوم على أعناقهم « جماعة نشر الثقافة » ليشدوا من أزرها ويساهموا فى ما أخذت نفسها بسبيله .

مطبوعات مختلفة

مجلة الحديث : العدد الممتاز ١٩٣٣

أصدرت مجلة الحديث الغراء - التى تصدر بحلب ، لصاحبها الأديب الفاضل والصحفى القدير الأستاذ سامى الكيالى - عدداً ممتازاً ، لمناسبة دخولها فى عامها السابع .

« والحديث » مجلة غنية عن كل تعريف ، فحسبها أن تكون فى طليعة المجلات العربية ، التى تخدم الثقافة الأدبية ، وتدعو إلى تحرير الفكر ، وتشجيع الأدب العالى الجديد ، دون الاسفاف إلى استثارة نفوس الجماهير ، واستهوائهم بالموضوعات التجارية ، كما تفعل بعض المجلات ، التى تجعل همها كله منحصراً فى الكسب المادى دون أى إعتبار آخر .

فلتسر «الحديث» على بركة الله ، وليهنأ صاحبها الفاضل بما وفق إليه من نجاح .

مجلة المناهج

وهذه أيضاً مجلة من أرقى المجلات فى بلاد الشرق قاطبة ، تلك هى مجلة « المناهج » التى يصدرها فى دمشق الشام ، زميلنا الفاضل والعالم الجليل الأستاذ محمد مأمون عبد الوهاب الأرزنجانى . وهى المجلة الوحدة التى وقفها صاحبها الفاضل على خدمة المذاهب العلمية الروحية الخالصة . ويكفى القارىء أن يعرف أن من موضوعاتها : سر التكوين والناموس الأصلى للحياة ، ومناجاة الأرواح ، والتنويم المغناطيسى ، والسحر والشعوذة ... الخ — ، ليعلم مقدار ما يبذل صاحبها الفاضل فى خدمة الشرق والعربية من جهود .

فنثنى على همة الأستاذ الأرزنجانى ، ونرجو لمجلته دوام الذيوع والانتشار ، لينهل من منهلها العذب أبناء العربية والشرق فى جميع الأقطار .

مجلة الارشاد

لسان حال أئمة المساجد والوعاظ

هذه مجلة ناشئة ، بين أيدينا العدد الثانى منها ، وهو وحده كاف على ما سيكون لها من أثر طيب فى تهذيب النفوس الجامحة ، وخدمة الدين الحنيف خدمة منتجة .

ويقيننا أن هذه المجلة الفتية ، سيكون لها أثر فى خدمة الاسلام ، إذا لم يستكتب حضرات القائمين بأمرها — فى المستقبل — بعض مدعى العلم بالدين ، والذين هم أبعد الناس عن الدين فليحرصوا على أن يكون كتاب المجلة قدوة صالحة ، لتؤدى المجلة رسالتها فى صدق ويقين .

مجلة الهداية

أهدانا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ كمال المغربى مفتى لواء صيدا سابقاً ، العدد الأول من مجلته « الهداية » ، صدر فى بيروت بتاريخ ١٥ رمضان المبارك ، حافلا بمختلف ضروب الأدب والثقافة ، وقد جعل صاحبها بدل الاشتراك فيها زهيداً جداً — على حد تعبيره — ليتسنى للجميع الاطلاع عليها . فنرجو للزميلة الرواج والذيوع

دار الكتب المصرية

أنجزت دار الكتب المصرية طبع كتاب « ديوان نابغة بنى شيبان » أحد فحول شعراء الدولة الأموية ، وهو كسائر مطبوعات الدار فى دقة التصحيح وجمال الطبع ، وثمن النسخة الواحدة منه ٤٠ مليماً للجمهور و ٣٠ مليماً لأصحاب المكاتب أو لمن يشترى منه عشر نسخ فأكثر . ويطلب من دار الكتب المصرية.

ونحن ننتهز هذه الفرصة لنحيي حضرات رجال دار الكتب ، على ما يبذلونه من دقة وعناية فى ما يخرجونه من عيون الكتب والمؤلفات .

اعتذار

لدينا جملة كتب ورسائل ومجلات جديدة ، سنكتب عنها فى الأعداد التالية إن شاء الله ، نظراً لضيق المجال الآن . وننتهز هذه الفرصة لنعتذر لحضرات القراء عن عدم نشر أبواب المجلة فى هذا الجزء ، للسبب السابق.